

# التنزيه الإسلامي

محاورة ورواية

ISLAMIC TRANSCENDENCE  
DISCOURSE & ACCOUNT

www.muhammadanism.org  
May 21, 2007  
Arabic

تأليف

القس و. ت. جردنر

أحد قسوس الإرسالية الأسقفية الإنكليزية بمصر

مؤلف «ماذا حدث قبل الهجرة» و«دليل جديد» و«سيرة إسحق»

و«سيرة بولس» و«إنجيل برنابا» الخ

BY  
W. H. T. GAIRDNER

«طبعة ثانية»

صدر من المكتبة الإنكليزية بمصر

سنة ١٩١٤

طبع في المطبعة الإنكليزية الأميركية بمصر

# فهرست الكتاب

وجه			المقدمة
١			الفصل الأول
٣		— رأي المسلمين في الله تعالى	» الثاني
١٠		— انتقاد الرأي الإسلامي في الله تعالى من وجهة عقلية	» الثالث
١٩		— النظرية الإسلامية المُغالى فيها	» الرابع
٣١		— تأثير رأي الإسلام في الله في أخلاق الإسلام (١) باعتبار الشروع الذاتي	» الخامس
٣٧		— تأثير رأي الإسلام في الله في أخلاق الإسلام (٢) باعتبار المحبة	» السادس
٤٩		— تأثير رأي الإسلام في الله في أخلاق الإسلام (٣) باعتبار القداسة	» السابع
٥٩		— ناكِر نفسه	» الثامن
٦٦		— ناكِر نفسه (تابع)	» التاسع
٧٦		— أدين حتى الموت	

## مُقَدِّمَةٌ

يسرنا أن نضع بين أيدي القراء الكرام حلقة أخرى من سلسلة المباحث الدينية لفائدة أبناء اللغة العربية

أول حلقة من هذه السلسلة كتاب «ماذا حدث قبل الهجرة» وفيه بحث تاريخي فلسفي يثبت صحة الإنجيل الحالي ويفند دعوى الذين يذهبون إلى تحريف الإنجيل ويزعمون أن الإنجيل الصحيح قد ضاع وأُستبدل بالإنجيل الحالي. والحلقة الثانية من هذه السلسلة «دليل جديد على موت يسوع المجيد» وهي تثبت موت المسيح بأدلة وبراہین سديدة إذ إن السيد له المجد سبق فأنبأ بموته كفارة عن الخطاة

ومن حلقات هذه السلسلة أيضاً الكتاب الموسوم «بإنجيل برنابا» وهو يحتوي على بحث فلسفي تاريخي انتقادي يفند دعوى القائلين بأن إنجيل برنابا الذي ظهر حديثاً هو الإنجيل الحقيقي وهناك حلقة أخرى — «أحمد وبولس» — موضوعة على سبيل المحاوراة في مواضيع دينية مختلفة

---

ويليها «الوحي» وفيها محاوره بين جميع الأشخاص المذكورين في الحلقات السابقة وموضوع المحاوره ظاهر من اسم الكتاب وهو الوحي — باعتبار التوراه والإنجيل والقرآن

ويلي ذلك الحلقة الحالية وهي كما يرى القارئ موضوعه على سبيل المحاوره بين الأشخاص الوارد ذكرهم في الحلقات السابقة وموضوعها الله باعتبار رأي المسلمين وقد انتقدناه في هذه الحلقة مع مراعاة عواطف إخواننا المسلمين. والكتاب كله كما يرى القارئ موضوع بلغة جمعت بين البساطه والاحترام لله جلّ وعلا. والمقصود منه حمل إخواننا المسلمين على البحث والتفتيش فيروا أفضلية رأي النصارى في الإله المعلن في يسوع المسيح

أما السبب الذي وضعنا من أجله بعض هذه الحلقات على سبيل المحاوره فهو لكي نشوق القارئ ونزيده رغبة في البحث سيما وإن لهذه المواضيع وجهة عملية. ولكن لا يجب أن ينسى القارئ أن المحاوره كلها تخيلية وهو أمر جائز فإن الروايات الخيالية تعد ضرب من آداب اللغة

وقد ذيلنا هذه المباحثه الوهميه بروايه خياليه تبين تأثير رأي النصارى والمسلمين عن الله في الناس. والله الهادي إلى سواء السبيل

## إِفْضَالُ الْأَوَّلِ

رأي المسلمين في الله تعالى

يذكر القارئ الأصحاب الذين كانوا يجتمعون معاً للبحث في مواضيع دينية مختلفة كصحة الإنجيل والوحي وهلم جراً. فمن الأعضاء المسلمين الهندي وأحمد وعثمان وفهمي والشيخ عبد الله الخ. ومن الأعضاء المسيحيين حنا وبولس وغيرهما. وكان بينهم عضو يهودي اسمه كوهين ونظراً لنجاحهم في مباحثهم الدينية السابقة عزموا على النظر في أمور أخرى. فبعد البحث والمداولة عزموا على البحث في رأيي المسلمين والنصارى في ذات الله لأن هذا الموضوع أهم سائر المواضيع الدينية

وإزداد نطاق الجمعية اتساعاً بانتظام عضوين جديدين في سلك مباحثها أولهما مسيحي قد أسلم واسمه حسن أفندي عبد الفتاح وثانيهما مسلم قد تنصّر واسمه توما أفندي عبد المسيح وكان كلاهما من الشبان الأذكياء المتهذبين لم يغيرا مذهبيهما لغايات سافلة بل عن اعتقاد تام. وكان ثانيهما قد اتخذ اسم

«توما» لأنه لم يعتنق الدين الجديد إلا بعد اجتياز الشكوك والريب ثم اهتدى إلى الإيمان بالمسيح بطريقة أشبه بإلهام. وكانت لجنة الجمعية قد اطلعت كليهما على الموضوع المعين لأجل المباحث وطلبت إليهما أن يشتركا فيها فلبيا الطلب بطيبة خاطر

فلما انتظم عقد الجلسة نهض الرئيس وبسط الموضوع أمام الجميع وهو «أوجه الخلاف بين المسلمين والنصارى باعتبار جوهر الله تعالى» وقال بعد السلام والبسمة «أومل أيها السادة أن لا يكون البحث عقيماً سفسطياً أو منحصرأ في إظهار المقدرة اللغوية. والحق يُقال إنه من الصعب أن يتجادل الناس في الأمور الدينية بدون شيء من التعرض والتعصب ولكن من الضروري أن نقوم بمباحثاتنا كأخوان. ومع أن عاداتنا وعقائدنا تحظر علينا العبادة مع المسيحيين إلا أنني اعتقد أن لين لجهتنا في المباحث يزداد إذا وقفنا جميعاً وصلينا كل منا في قلبه على انفراد بحسب طقوس فرائضه وعقيدته» اهـ

وعند ذلك وقف الجميع تلبيةً لإشارة الرئيس وبعد الانتهاء من الصلاة ارتقى المنصة حسن أفندي عبد الفتاح وقال:

«أيها السادة. إن أعظم جاذبية في الدين الإسلامي هي

بساطته وسهولته الغربية بخلاف سائر الأديان والعقائد المعقدة المبهمة. فالعقيدة الإسلامية بسيطة سهلة لا تخرج عن حدّ قولك لا إله إلا الله محمد رسول الله. ومن تعمق في اللاهوت الإسلامي يجد أموراً كثيرة تكفي لأن تشغل قواه العقلية طول حياته ومع هذا يجد جميعها مجموعة في الكلمة. فديانتنا إذاً توافق الساذج والفيلسوف معاً

إنني لا أريد أن أخرج إحساسات أحد من المتباحثين إذا قلت إنني لا أظن أن أحداً قد انتقد فلسفة الدين الإسلامي أو أن الديانة المسيحية قادرة على الدفاع عن نفسها بالبراهين الفلسفية. فإن زعمتم أنني مخطئ في ذلك فألتمس منكم أن ترشدوني إلى نور الحقيقة والله لا يضيع أجر المحسنين

وأراني في غنى عن إطالة الشرح في رأي الإسلام بخصوص جوهر الله تعالى فإن جميعكم تعرفونه حق المعرفة. ولكنني سأشير إلى أهم الأمور فيه وأطرحها أمام حضراتكم للبحث والمناقشة. ومتى أتمنا ذلك أدركنا حقيقة الرأي الإسلامي في هذا الموضوع وأعطينا فرصة لإخواننا المسيحيين ليكشفوا عن آرائهم كشفاً تاماً



نحن نقول إنه لا بدّ لكل معلول من علة إذ لا يمكننا أن نتصور سلسلة علل ومعلولات مرتبطة ببعضها لا تنتهي إلى مصدر بل لا بدّ أن تصل إلى النقطة الأولى علة العلة المطلقة غير المقيدة. نقول غير المقيدة لأنها لو كانت مقيدة ما اختلفت عن سلسلة العلة والمعلولات المذكورة بل لكانت بمثابة معلول والمعلول يحتاج كما لا يخفى إلى علة أولية

وهذه العلة الأولى المطلقة غير المقيدة والتي لا تؤثر فيها العلة الخارجية بل هي فوق كل محدث من زمان ومكان وفي غني عن كل شيء — هذا العلة نسميها الله. وكل هذا يوافق العقل السليم والفلسفة الصحيحة. أقول هنا في معرض الكلام إن معظم العقائد في دين الإسلام هو بديهي واضح يمكن إثباته بالاستدلال المنطقي العقلي. وأما الوحي فلا يخفى أن مهمته هي أولاً إثبات البديهة والاستدلال وثانياً إعلان الحقائق المستحيل إدراكها بالبديهة والاستدلال من مثل الحياة الآتية وهلم جراً وإلا كانت لا تخالف العقل

فالعقل والوحي كلاهما يثبتان بأجلى بيان أن هذه العلة الأولى أو الله هي واحد (ولا أقف للبحث في هذا الأمر) غير

محدود في المعرفة. كلي الحكمة. ذو إرادة ثابتة. غير محدود في القوة. قادر على كل شيء. وأقوى برهان على ذلك المناقضات العظيمة التي تعترضنا في الاعتقاد بعكس ذلك

فالوحدة (١) والمعرفة (٢) والإرادة (٣) والقدرة (٤) هي من سبع صفات الله الجوهرية ويمكن استنتاجها بالعقل وإثباتها من الوحي. أما الثلاث الصفات الباقية فإنها من مظاهر الوحي ولذلك يصعب استنتاجها بمجرد العقل. وقد أعلنها الله للناس بواسطة أنبيائه المعصومين إذ أرسلهم ليعلموا الناس بأنه يرى (٥) ويسمع (٦) ويتكلم (٧) إلا أنني لا يمكنني أن أقنع المناظر بالاستشهاد من القرآن أو من كلام النبي لأنه ينكر كليهما ولكنني بالإشارة إلى أن الصفات الثلاث الأخيرة — أي السمع والنظر والكلام — ليست منافية للعقل بل بالعكس من الغريب المدهش أن يكون الله العارف بكل شيء لا يسمع ولا يرى ولا يخبر عباده عن ذاته أي لا يتكلم ولا يخفى أن فلسفة الدين الإسلامي قائمة على هذه الصفات السبع كأنها سبعة أعمدة. وقد دعي الله في القرآن الشريف بتسعة وتسعين اسماً كلها صفات متفرعة عن الصفات السبع الرئيسية

الجوهرية. أما ما يتعلق بالحياة المستقبلية والفرائض الدينية في هذه الحياة فإنه أمر منفصل قد قرره الوحي ولا علاقة له بموضوعنا

هذه أهم الآراء الإسلامية في هذا الموضوع وهي «اقتصاد في الإيمان» وتبتعد عن كل تطرف. وتنافي زيغان إخواننا المسيحيين عن سنة التوحيد إذ هم يكثررون من أقانيم الله وينسبون إليه التقيد والعجز والنقص وعدم الكفاءة. وأما الله تعالى في عرف المسلمين فمنزه عن هذه الصفات إذ هو غير مقيد ولا مسؤول لدى المخلوق مطلق السلطة والإرادة لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وهو في غنى عن العالم والساكنين فيه سبحانه اللهم لا إله إلا هو الحي القيوم!

ثم توقف الخطيب هنيهة عن الكلام فأظهر الكثيرون من الأعضاء استحسانهم. فرنت القاعة بدوي التصفيق. ثم استأنف الكلام قائلاً: —

«والآن أودّ أن أسمع كل تقرّيب أو انتقاد للآراء التي بسطتها و أنا أعتقد أنها لا تحتاج إلّا إلى مجرد بسط فقط ليقبلها الجميع»

---

توما: «إنني أوافق على معظم ما قلته أيها الأخ فأنا أسلم بما قلت سوى ما أشرت إليه من مخالفة المسيحيين»

عبد الفتاح: «لماذا إذاً هجرت الإسلام؟»

توما: «بإذن الرئيس سأبدي رأيي في الجلسة التالية»



## الفصل الثاني

### انتقاد الرأي الإسلامي في الله تعالى من وجهة عقلية

توما: «اصنع إليّ أيها الأخ. جاء في كلامك عبارة لا أوافقك عليها وهي إنَّ في الإسلام «اقتصاداً في الإيمان» والحقيقة خلاف ذلك إذ إنَّ الإسلام يبحث في وجه واحد فقط وقد كبره حتى اضطر لنكران الوجه الآخر فكانت النتيجة غير مرضية. فأنا بوجه عام أقبل الحقائق المجيدة التي ينادي بها الإسلام وأعجب بالرأي المتعلق بصفة الله الذي ثبت الإسلام عند أول ظهوره في العالم المعروف يومئذ. ولكنني أرى في الوقت نفسه (١) أنَّ التمسك بالوجه الواحد من الحقيقة فقط يفضي إلى التعطيل (٢) أنَّ في الإسلام نفسه إشارات تنافي النظرية الإسلامية وتقضي إلى المسيحية»

الشيخ حسين: «إن المعتزلة والصوفية قد بحثوا في كل دعاويكم والإسلام باقٍ كما كان»  
توما: «من المحتمل أن يكون المعتزلة والصوفية المنبذون قد عثروا على شيء من الحقيقة. ولذلك لا يمكنني أن أطوي

صفاً عن أتعابهم. ولقد أخطأ الإسلام بعدم محاولته استخلاص الحقيقة التي كان يسعى إليها هؤلاء العلماء»

الهندي: «إذاً لنسمع ما عندك من الهرطقات أيها المعتزل!»

عبد الفتاح: «إنك قد نطقت بعبارة لم أسمعها من قبل وهي أن رأي الإسلام في ذات الله يفضي إلى التعطيل وأنه إذا انتفى ذلك فإنه يفضي إلى المسيحية بعينها»

الشيخ حسين: «إهانة عظيمة!»

بولس: «رويد أخاك أيها الفاضل فكم مرة قلت لي إن الديانة المسيحية تقول بتعدد الآلهة وإنها إن لم تكن كذلك فإنها تفضي إلى الإسلام. فما الفرق بين القولين؟»

الشيخ حسين: (يبتسم بالرغم عن) «أجل ولكن ما قلته أنا صحيح وما قاله توما أفندي غلط»

توما: «إنك بكلامك هذا تفرض صحة الشيء المطلوب إثباته وتقول عن المسيحية ما لا تود أن تسمعه عن الإسلام»

الشيخ حسين: «لا بأس!»

توما: «إن ما قلته أنا هو نتيجة اختبار خمس سنين وأنا مستعد أن أبسط لك الأسباب. وأسمح لي بأن أقول في معرض

كلامي إن الأسباب الدينية العقلية التي نحن مزعمون أن نتأمل فيها لم تكن وحدها كافية لتحملني على تغيير ديني بل إن هنالك أسباباً أخلاقية (وهي أهم) حملتني على تفضيل الديانة المسيحية. أو إن هدى ربانياً عجبياً ساقني إليها. ولا أقول ما قلت إلا دفعاً لمجرد الاعتماد على العقل في أمر الدين وذلك لأن الاعتقاد كثيراً ما لا يرافقه بشيء من تجديد الأخلاق. فبعد هذا البحث العقلي إن شاء الله في الفرق بين ديانتينا من جهة الأخلاق سأحاول أن أبين العلاقة بين ديننا وآدابنا وأظهر أن أفضلية عقائدنا اللاهوتية قائمة بأهمية اعتبارها الأدبي»

ففي سائر البلاد الإسلامية التي لم تحتك بعد بالديانة المسيحية ولا بالموثرات الأوروبية ترى خمولاً وتقاعداً وتراخياً لا مثيل له في البلدان الأخرى. فلا قوة تحمل المسلمين على الشروع الذاتي أو ترغيبهم في تحسين أمورهم وترقية أنفسهم إلى أحسن مما كان عليه أجدادهم لأنهم متطرفون في المحافظة على القديم. وأنا أذكر لكم الممالك الآتية شهادة على ما قلت: مراکش. طرابلس. أواسط إفريقيا. السودان. بلاد العرب. العراق.

العجم. أفغانستان. الهند الشرقية. الصين الإسلامية. أواسط آسيا الإسلامية. الخ  
فماذا نجد في هذه البلاد إلا تراخياً وتقاعداً؟ وما سبب ذلك الخمول سوى رأي المسلمين  
هذا في الله تعالى. أما البلاد الإسلامية التي قد احتكت بالديانة النصرانية فهي أرقى من الممالك  
التي ذكرناها نوعاً ما. وقد أخذت الطائفة الإسلامية في الهند تستيقظ من رقدتها وتهب من سباتها  
رغمًا عن أنفها لأن رأت نفسها في تأخر وانحطاط عن بقية الطوائف. ونرى أن احتكاك مصر  
بالمسيحيين والأجانب قد جعلها أرقى من غيرها من الممالك المذكورة. ولكن رؤساء الإسلام لا  
يهتمون بهذا الأمر. فلوا تركوا وشأنهم لم يهتموا قط بترقية حالة الأزهر مثلاً. انظروا إلى تونس  
والجزائر فإنهما على رغم النفوذ الإفرنسي لا يزال المسلمون هنالك في حالة الخمول. انظروا إلى  
تركيا. لولا احتكاكها بالغربيين ووجود بعض المدارس المسيحية فيها كمدارس الآستانة وبيروت  
لبقيت البلاد في حالة يرثى لها من الانحطاط والخمول

أما المصلحون المسلمون فبعضهم مسلمون بالاسم فقط كما



هو معروف. هذا وإذا نهض أحد المسلمون وطلب إصلاح الإسلام قامت عليه قيامة الأمة الإسلامية بأسرها وذلك لأن المسلمين «المحافظين» هم مكتفون بالشرعية والشرعية مبنية على إرادة الله كما يصورها القرآن فهي لا تقبل التعديل. فإذا ترك الإسلام وشأنه بقي كما هو لا يرتقي أبداً وإذا رأيت تعديلاً للشرعية (عملاً لا اسماً) فذلك على رغم الإسلام نفسه أي بسبب احتكاكه بالمسيحية وذلك بسبب إضافة القانون المدني. وهذا ما يجعلني أقول إن الإسلام في حد ذاته يقتل كل همة ونشاط ويبعث على الخمول

الشيخ رضوان: (همساً) إنه من حسن حظك أن الشرعية هنا عادلة عملاً لا اسماً كما تقول وإلا لكانت تأمر بموتك جزاء لك على «شروعك الذاتي»

الرئيس: «إن عبد الفتاح قد عرض آراءه للتقريب أو الانتقاد فلنلب أولاً دعوته. ما حجتك على أن التوحيد الإسلامي يفضي إلى التعطيل كما أدعيت وهي دعوى مدهشة؟»

توما: «مغالاته في التنزيه إذ إنه يجعل الله منزهاً عن كل الحوادث يفصله مطلقاً عن الكائنات. وكيف يمكننا حينئذٍ أن

ندركه تعالى أو ندرك علاقته بالعالم ونسبته إليه؟»

حسين: «إن الله تعالى ليس منفصلاً عن الكائنات ولا متصلاً بها»

توما: «فما نسبته إليه إذاً»

حسن: «لا أعلم»

توما: «إن كنت تشير بكلامك إلى الاتصال أو الانفصال المادي المكاني فأنت مصيب في رأيك إذ إن جميع الأمور الروحية من حيث هي روح منزهة عن الاعتبارات المكانية أو المادية. أما أنا فإنني أشير إلى أمر أسمى ويمكن وضعه بالقلب الآتي وهو «هل لله تعالى صلة ما بكائناته أو نسبة إليها؟»

حسين: «إن لفظة «صلة» تشير إلى قيد ومقيد. ولذلك نحن نعتبر الله تعالى غير متصل

بالكائنات»

توما: «أوليس بينه وبينها نسبة ما؟»

حسين: «بدون شك!»

توما: «فما هي إذاً»

حسين: «نسبة الخالق إلى المخلوق مثلاً»

توما: «حسناً قلت فهو إذا متصل! لأن النسبة ليست سوى صلة ولا يمكنك أن تتكرر هذا الأمر. إذ واضح إنه إذا وجدت نسبة ما بين شيئين فهما متصلان ولا ينفصلان عن بعضهما حتى في حيز الفكر. وبعبارة أخرى إن النسبة تؤثر في الشئيين معاً»

عبد الفتاح: «إنك بقولك «تؤثر» تنسب المفعولية إلى الله سبحانه وتعالى وهو كفر محض»

توما: «ابحث في المشكل ملياً أيها الأخ. وأما هذه «المفعولية» فسأنتي على البحث فيها فيما بعد. ولكن ألا تسلم الآن بأن وجود نسبة بين الخالق المخلوق مثلاً يشير إلى وجود صلة ما بينهما؟»

عبد الفتاح: «كلا إذ لا يمكنني أن أفيد الله تعالى بصلة مع خليقته لأنه براء كل البراءة من هذا القيد»

توما: «فحاصل دعواك إذا يفضي إلى التعطيل لأنه إذا انتفت الصلة فهناك إذا هوة عظيمة بين الله وبين خليقته حتى لا يمكن للفكر نفسه أن يجتازها لأن الفكر حينما يجعل نسبة بين الله والعالم المادي يقيدته تعالى بنوع ما وإلا فهو بحسب

اعتقادكم خارج عن حيز الفكر. فالتنزيه إذاً لا يبقى من الله تعالى سوى الاسم المركب من ا - ل  
ل - ه»

عبد الفتاح: «إن في هذا الكلام مغالطة»

توما: «كلا أيها الأخ فإن اعتراضاتي مبنية على ضوابط عقلية لا على اللفظ وإذا أنكرت  
هذه الضوابط أنكرت ذاتك وكل الحوادث فضلاً عن إنكارك الله. ثم إنني قلت إن في نفس الإسلام  
أموراً تناقض هذا التنزيه المغالى فيه. إنكم تقولون إن الله بعث رسولاً فمن أين بعث هذا الرسول  
وإلى أين بعثه!»

عبد الفتاح: «إن الكلام هنا مجازي إذ إن أفكارنا وأقوالنا لا يمكنها أن تنفصل عن المكان  
ولعمري أن أصغر طلبية اللاهوت يعرف ذلك»

توما: «إنني لا أنكر ذلك بل أسلم به ومع ذلك فأعلم أن الكلام يشير إلى وجود «صلة»  
مهما كان نوعها وإلا فإنه لا يكون مجازياً فقط بل بدون معنى بالمرّة»

حنا: «لا شك في ذلك. ثم إن في كلا القرآن والتوراة ألوفاً من مثل هذه الأقوال إذ كثيراً  
ما يُقال إن الله قال شيئاً ثم فعل النبي كذا وكذا ثم خاطبه الله بعد ذلك وقال هلم جراً.»

فليت شعري إلى أي شيء تشير هذه الأقوال إن لم تكن تشير إلى ترتيب الزمان البعيد أو القريب ماضياً أو حالاً أو استقبالاً أو لا يجعل هذا الله في حيز التقيد؟»

الشيخ عبد الله: «إن هذه أقوال بشرية يا صاح وإن الله ضابط الماضي والحاضر والمستقبل وهو يجمعهم بطريقة منزهة عن الزمان»

توما: «قد يكون ذلك صحيحاً وإن يكن من العبث الادعاء بإدراك حقيقته. ولكنني أعود الآن إلى القول بأنك قد اضطررت لاستخدام كلام دال على وقوع الله تعالى في حيز التقيد وأنه مهما كان المقصود من المجاز فإن اللغة تشير إلى وجود صلة بين الله والإنسان أي إلى حدوث شيء بينهما وأن أعمال الله متصلة بأعمال الإنسان إن لم تكن متوقفة عليها. وبعبارة مختصرة إن التنزيه قد أنكره نفس المدافعين عنه لأن الإله المنزه بهذا التنزيه ليس سوى فرضاً مجرداً وهمياً غير حقيقي وهذا يفضي كما بينا إلى التعطيل»



## الفصل الثالث

### النظرية الإسلامية المغالية فيها

وبعد البحث في الأمور التي ذكرها توما أفندي عبد المسيح أرفضت الجمعية ثم عادت فالتأمت في يوم الجمعة التالي لسماع تنمة المباحثة. وإذ دعا الرئيس توما أفندي ليستأنف الكلام نهض هذا ملبياً وقال: —

«أيها الإخوة. إنني لم أسمع هذا في مباحثتنا الماضية رداً على الاعتراضات التي قدمتها وهي (أولاً) إن التنزيه الذي ينسبه المسلمون إلى الله يفضي إلى التعطيل إذ إنه لا يميزه تعالى عن الحوادث فقط بل يبعده عن الفكر أيضاً بعداً شاسعاً. (ثانياً) إن شرّاح الإسلام والقرآن نفسه يستعملون ألفاظاً تناقض هذا المذهب بأن تجعل الله تعالى في حيز الاتصال بالخليقة والمكان والزمان. ولعمري إن هذا مشكل معقد فأما أن تؤمنوا بمذهب التنزيه وتكتفوا بإله لا تعلمون عن شيئاً البتة بسبب انفصالكم عنه كل الانفصال (وفي هذه الحالة يجب أن تتكروا النبوة والقرآن) — أو أن تتكروا مذهب التنزيه المغالي فيه وفي هذه

الحالة تصبحون أنتم والمسيحيون سواء»

أعضاء: «لا سمح الله!»

توما: «لا أرى في ذلك كبير أمر»

عبد الفتاح: «إنه لمن السهل أن تهاجم ولكن من الصعب أن تدافع فهل لك أن نتحفظنا بما عندك من آراء المسيحيين في ذات الله؟»

توما: «حباً وكرامةً ولكنني لم أتم أدلتي بعد فاسمحوا لي أن أبين لكم أن أفكار عامة المسلمين هي في الحقيقة خالية من معنى الله وما يختص بذاته المقدسة. أولستم تقولون: «كل ما خطر في بالك فهو هالك والله بخلاف ذلك» — أليس هذا روح التعطيل وعينه؟ فما أشدّ خطأ من ينسب إلى هذا لإله غير المعروف. إنكم تجردون العقل من كل شيء وتسمون ما يبقى بعد ذلك «إلهاً» وبعبارة أخرى إنكم تنفون كل شيء من الذهن ثم تؤلهون هذه المنفيات وتسمون مجموعتها (الله)»

عبد الله: «ما شاء الله!»

أحمد: «إنني على رغم بساطتي أرى الحق في جانب توما أفندي فإن العبارة المسجعة التي اقتبسها (أي كل ما خطر في بالك

الخ) تعبر عن آراء الألوفا من المسلمين. وإني وأيم الله لم أحن رأسي مرة للصلاة إلا وخطرت تلك العبارة ببالي فمثلت الله تعالى لعيني شيئاً وهمياً لا حقيقة له»

وبعد هذا حدث سكوت عميق ثم نهض حسين وقال: «ما هذا الخلط والضلال بل هذا الكفر العظيم؟ إن صفات الله السبع (المعنوية) التي ذكرها عبد الفتاح أفندي في ديباجة خطابه والتي قد استنتجها علماء الإسلام الأفاضل لتمثل لنا بأجلى بيان ذاتاً إلهية ذات قدرة وإرادة وعلم وحياة وسمع وبصر وكلام فماذا تطلبون بعد؟»

توما: «وأنا أكرر لك إنه لا معنى لهذه الصفات السبع باعتبار التنزيه المغالي فيه وإلا فإنها تقضي إلى ما ينافي الإسلام ومع ذلك فإنها مقصرة عن وصف الذات الإلهية وصفاً حقيقياً»  
عبد الفتاح: «وكيف ذلك؟»

توما: «إن الصفات السبع المذكورة لا تفيد شيئاً عن محبة الله وقداسته اللتين هما صفتان لازمتان لذات الله تعالى بل هما ذاته وماهيته تعالى»



حسين: «أما القداسة فإنها داخلة ضمن أسماء الله التسعة والتسعين. ألا يدعى تعالى (قدوساً)؟»

توما: «ولكن بأي معنى!»

حسين: «لا بالمعنى الأخلاقي لأن ذلك مما يختص بالمخلوق الأمر الذي كان الله منزهاً منه على الإطلاق»

توما: «إذا بأي معنى؟»

حسين: «الأرجح أن معنى القداسة هنا هو تعاليه عن كل المخلوقات والحوادث»

توما: «ولكن هذا هو التنزيه بعينه قد ألبسته ثوباً آخر»

عبد الفتاح: «أما (القداسة) فعندي أنها داخلة في حيز الإرادة لأن الله أراد أن تكون بعض الأشياء حلالاً وبعضها حراماً فكانت كذلك»

حسين: «وأما (المحبة) فإنكم أنتم المسيحيين قد أفسدتم معناها الحقيقي وجعلتموها مرادفة للضعف والرغبة مع أن محبة الله ليست سوى رحمته»

توما: «ولكن أين موضع الرحمة من الصفات السبع بل في باقي الصفات»

حسين: «إن الله إذا أراد أن ينعم على أحد فقد رحمه ورضى عنه. وقد اعتاد البشر أن يسموا هذه الرحمة وهذا الرضاء محبة. وإذا أراد أن يحكم على أحد بالهلاك حجب عنه رحمته ورضاه والبشر يسمون ذلك غضباً»

توما: «هذا ما كنت أتوقع أن أسمعك منك. فالإسلام على كل ما يظهر يحول أغلب صفات الله تعالى من مثل هذه المحبة والرحمة والقداسة إلى إرادته أو قدرته المجردتين. أما الكائنات وما فيها من إرادة البشر فإنكم تجعلونها آلة صماء تحركها الإرادة الربانية إلى حيث تشاء. فأنا لا أرى فرقاً بين مذهبكم هذا ومذهب الماديين إذ إن كليهما يشير على ألوهية القوة سوى أنكم تعوضون القوة الطبيعية في مذهب الماديين بقوة الله في مذهبكم أنتم. على أن كلا الاسمين والمعنيين واحد. ولذلك ترون أن التنزيه بهذا الاعتبار يفضي إلى ضده. إننا قد رأينا سابقاً يفضي إلى التعطيل وهو الآن يفضي إلى مذهب المادية وسنراه عما قليل يفضي إلى القول بوحدة الكائنات ونكران

الحوادث مطلقاً. ولا يخفى أن المبدأ الذي يفضي إلى نتائج غير منتظرة كهذه لا بدّ أن يكون فاسداً»

الهندي: «إنك ذكرت لنا مذهب وحدة الكائنات وقلت إن التنزيه قد يفضي إليه فهل لك أن تبرهن لنا ذلك؟»

توما «إنني قد بينت آنفاً إن التنزيه المُغالي فيه يفضي إلى التعطيل وإن المُغالاة في الإرادة والقدرة الربانيتين كما يفعل المسلمون يفضي إلى وضع الله في مصاف القوة المحضة الأمر الذي يشبه مذهب الماديين الطبيعيين كل الشبه. وسأحاول الآن أن أبين وحدة الخلق والتنزيه المطلق هما على طرفي نقيضٍ»

عبد الفتاح: «هات ما عندك»

توما: «لنعد الآن إلى الصفات السبع. أما بخصوص علم الله فاسمح لي أن أسألك ما هي الأشياء التي دخلت في حيز ذلك العلم منذ البدء؟ فإن العلم — بحسب عقل البشر — يفيد وجود شيء معلوم خارج عن حيز النفس. وما تقدم يصدق على سائر الصفات الباقية تقريباً. أي إنها تشير إلى وجود منفصل عن نفس الله يعمل فيه. «فالقدر» مثلاً تشير إلى وجود شيء تظهر فيه. وكذلك «الإرادة» تشير إلى وجود شيء

تعمل فيه. «والبصر» يشير إلى شيء منظور. «والسمع» إلى شيء مسموع. «والكلام» إلى شيء منكلم به. فحاصل القول إذاً إن هذه الصفات متوقفة على وجود كائنات»

عبد الفتاح: «وعلى فرض صحة ما تقول فإن الله الذي هو تلك الذات القائمة بهذه الصفات يبقى مستقلاً عن الكائنات تمام الاستقلال»

توما: «إن هذا لأشبه شيء بالكفر لأنه إما إنك تحاول جعل تلك الصفات غير أزلية وبذلك تفصلها عن الله — وهذا مناقض لأغلب المذاهب الدينية لأن الذات إذ تجردت عن خواصها وسائر صفاتها مطلقاً فلا يبقى منها إلا الصورة الوهمية (وبعبارة أوضح إنها تصبح لا شيء وهذا أيضاً يفضي إلى التعطيل) أو إنك تجعل ذات الله متوقفة على ما هو غير الله إذ إنك تربطه تعالى مع الكائنات إظهاراً لصفاته المذكورة»

حسين: «كلا! إنه مستقل وغنى ولم يكن في حاجة إلى الخلق حتى إنه لو لم يخلق العالم أيضاً لبقى نفس الإله»

توما: «ولكن كيف يمكن أن يكون والحالة هذه إلهاً ذا قدرة وعلم وسمع وبصر وكلام وهلم جراً»

حسين: «ذلك بأن سبق فعلم الكائنات كأشياء ممكنة الوقوع وبهذا الاعتبار يسمع ويبصر ويتكلم ويريد وهلم جراً»

توما: «ذلك وهم محض. فالصعوبة تبقى حيث كانت لأنك الآن تجعل الله متوقفاً على عالم محتمل الوجود (كامن) عوضاً عن عالم حقيقي (ظاهر) وفي كلا الاثنتين تعلق بالكائنات»

حسين: «كلا إني أنكر حتى ضرورة دخول عالم ممكن الوجود في تصور الله»

توما: «إذا أنت تنفي صفات الله ونسبته إلى الكائنات وتجعله غير معلوم وغير ممكن علمه أو التكلم عنه حتى والافتكار به أيضاً»

حنا: «وفضلاً عن ذلك فإن خروجه عن حيز التجرد هذا إلى مقام خالق هو كما رأينا سابقاً أمر مستحيل باعتبار مذهب التنزيه إذ إن هذا الأمر يفيد «الصيرورة» أي صيرورة غير الخالق خالقاً وتقيدته بدخوله إلى حيز الاتصال بزمان ومكان محدودين بعد أن انحجب عن الكائنات أجيالاً ليس لها عدد. وبعبارة أخرى أن التنزيه المطلق ينافي الخلق — أوليس ذلك واضحاً؟»

الهندي: «إنك الآن تنقر على وتر المسلمين الفرس القدماء الذين ذهبوا إلى وحدة الكائنات وكانوا في الحقيقة من أفاضل العلماء والفلاسفة على رغم كونهم ضالين وهم من فئة الصوفيين. ولقد درست فلسفتهم فأعجبت بها بعد درس مذهب التنزيه العقيم ومعانات مشاقه. ولعل ميلي إلى تلك الفلسفة ناجم عن كوني هندياً إذ لا يخفى أن الهنود ذهبوا إلى القول بوحدة الكائنات على أن مانعاً صدني عن الدخول في مذهب الصوفية وهو أنني لم أجده سوى رد فعل عن مذهب التنزيه المغالى فيه حتى أنني خشيت أن أكون متطرفاً إلى الجهة المقابلة. ولذلك طلبت ولا أزال أطلب مذهباً يوفق بين الاثنين ويكون فيه اقتصاد في الاعتقاد»

توما: «ذلك ما قد وجدته أنا في الديانة المسيحية»

الهندي: «ولو كنت أدرك ذلك تمام الإدراك لانتظمت في سلك تلك الديانة»

توما: «إذا سأجته أن أوضحه لك لعل فيه لك خيراً. ولكنك لم تبسط مذهب الصوفية

الذين يعتقدون بوحدة

الكائنات لهيئة الجمعية الموقرة ولا بيّنت أوجه مناقضاتها لمذهب التنزيه أو نتائج ذلك القياسية»  
الهندي: «إن الصوفيين ادّعوا أن فصل العالم عن الله مع إسناد صورة حقيقية جديدة له مع الحقيقة الوحيدة إنما هو إقامة إله آخر مع الله الواحد. فمذهب التنزيه إذاً ينافي على زعمهم ذاته ويفضي إلى القول بتعدد الآلهة. لذلك أنكر الصوفيون العالم المنظور ووضعوه موضع الوهم وحولوا قول المسلمين «لا إله إلا الله» إلى قولهم «لا شيء إلا الله». فالعالم والنفس وكل الحوادث هي أمور وهمية سوف تتطوي بين ثنيات الحقيقة الواحدة – أي الله – وتضيع هنالك كما تضيع النقطة في البحر – ولما كان الوجود المحدود وهماً فقد اعتبروه شراً لأنه منسلخ عن «الواحد» من قال إنه يوجد شيء حقيقي غير الواحد فقد كفر وقال بتعدد الإله. هذا هو ملخص مذهب الصوفية وأهل وحدة الكائنات»

حسين: «خط عظيم وضلال مبين؟»

الهندي: «ولكنه استنتاج منطقي مبني على مذهب التنزيه. لأنه إذا كان وجود الحوادث في حد ذاته ينافي تنزه

الله فليس لك إلا أن تطوي صفحاً عن تلك الحوادث وتتكرو وجودها بالكلية»

توما: «ولكنك لم تخبرنا بعد بوجه الفساد في مذهب الصوفية ومذهب وحدة الكائنات»

الهندي: «ذلك إنه بنكرانه حقيقة مظاهره المادة ينكر حقيقة التمييز بي الخير والشر فيمهد السبيل للخلاعة. ثم إنه ينكر أن التمييز بين الله والنفس يفضي إمّا إلى الكبرياء العظيم أو إلى الجنون بالدين وهذا سبب ما نشاهده من أمر الدراويش في الشرق مما يشبه في الحقيقة الجنون»

عبد الفتاح: «إن أفكارى مضطربة الآن فأنا أريد أن أبين لكم أن الله تعالى منزّه عن كل الحوادث فإذا لم ننزهه فإننا نخفض شأنه تعالى. ولكنني عندما أحاول أن أرفعه إلى هذه المنزلة العليا فأما أن أجعل الحوادث مستقلة عنه (وفي هذه الحالة كيف يمكن أن يكون مطلقاً) أو إنني أنكرها بتاتاَ منزلاً إياها منزلة الوهم. أو إنني أنكر الله تعالى (واستغفر الله) فالمشكل عسر الحل جداً فمن ينفذني.....»

توما: (همساً) «أشكر الله بيسوع المسيح ربنا. (لعبد



---

الفتاح) إن الناس إذ تورّطوا وضاقت بهم الحيل فلا بدّ أن يشعروا بخطاهم ويعود إلى حيث يجب أن يبدأوا ثانيةً»

عبد الفتاح: «ولكن أين هي النقطة التي زغت فيها؟»

توما: «مغالاتك في مذهب التنزيه بقطع النظر عن بقية الاعتبارات. إننا لا ننكر التنزيه بأحد اعتباراته ولكنه ليس هو الحقيقة كلها. وأنا أعتقد أن الديانة المسيحية هي أقرب إلى الحقيقة إذ إنها تحاول التوفيق بين سائر اعتبارات الحقيقة وبفعلها ذلك تقربنا من الحقيقة التامة بقدر استطاعة العقل البشري. ولذلك قد صرت أنا مسيحياً»



## الفصل الرابع

تأثير رأي الإسلام في الله في أخلاق الإسلام

(١) باعتبار الشروع الذاتي

انفرط عقد الجمعية وتفرق الأعضاء هذا في السكة الجديدة وذلك في الموسكي وهم يتحادثون عن موضوع ذلك النهار وما جرى فيه من المباحثات

وفي يوم الجمعة التالية انتظم عقد الجمعية ثانيةً حسب المعتاد فنهض فهمي قائلاً

«أيها الرئيس قد فاتنا شيء مهم في مباحثنا لا بدّ من التأمّل فيه»

توما: «وما هو؟»

فهمي: «إنك إلى الآن لم تضعنا على موقف ثابت فقد بحثنا في آراء لاهوتية فلسفية لا علاقة ظاهرة لها بحياة الإنسان حالة كونك تدعي أنه لا بدّ للاهوت من تأثير أدبي وأن عقيدة الإنسان الدينية لا بدّ أن تؤثر في سلوكه وآدابه وأمانيه»

توما: «أجل إن هذه حقيقة لا ريب فيها»

فهمي: «ولكنك إلى الآن لم تشرحها ولا بيّنت علاقة اللاهوت الإسلامي بالأخلاق الإسلامية»

توما: «شكراً لك على تنبيهك إياي إلى هذا الأمر الذي يجب البحث فيه قبل غيره. لأنه والحق يُقال من الأمور التي شغلت بالي طويلاً. فهل تظن يا فهمي أفندي أن الإنسان قد يصير مسيحياً في هذه البلاد ويحتمل ما يحتمله من أجل ذلك حالة كونه لم يحمله على التنصر سوى آراء لا يستفيد منها إلا فائدة عقلية كما يستفيدة من اعتقاده بقضايا أقليدس مثلاً فاعلم إذاً أن نظام الآداب المسيحية وتطبيق العقائد المسيحية على العمل هو الذي صيرني مسيحياً ولا يزال يحفظني كذلك»

حسين: «احذر يا توما أفندي أن تستخف بالفضائل التي نشرها الإسلام في العالم»

توما: «إنني أرحب بالفضيلة أين كان مهبطها ولكنني قد وجدت ثلاث نقائص في اللاهوت الإسلامي»

حسن: «وما هي؟»

توما: «سأذكرها بترتيب أهميتها. إننا قد بحثنا في مذهب التنزيه وإعفاء المسلمين لله من كل مسئولية وتحويلهم كل صفاته

تعالى كالإرادة والقوة والنعمة والنقمة وهلم جراً إلى «القدرة» فواضح أن جميع هذه الصفات باعتبار عمل الله هي مظاهر القوة»

حسين: «إنك تقرّ بهذا فماذا تطلب بعد؟ الله أكبر لا إله إلا الله!»

جميع الأعضاء المسلمين: «لا إله إلا الله!»

توما: «إن الإسلام بإعطائه كل الأهمية (للقدرة) وغضه النظر عن بقية الصفات يسبب شبه رد فعل على الآداب الإسلامية بثلاث طرق. فالطريقة الأولى هي افتقار المسلمين إلى قوة الشروع الذاتي كما يشهد بذلك الاختبار والتاريخ»

عبد الفتاح: «ذلك ما لا يمكن تصديقه! فأى شيء يدفع الإنسان إلى الأمام كالفكر بأن قدرة الله تشجعه وتشدّد عزيمته كما كان يقع للمسلمين؟»

توما: «نعم ولكن ذلك كان في أوقات محدودة وأحوال مخصوصة. ولا يخفى أن مثل تلك الأوقات والأحوال هي استثنائية. ثم إن الاعتقاد بعدم مسئولية الله وبسمو قدرته تعالى عن إدراك البشر وعدم انتفاع الإنسان من أتعابه يثبط العزائم ويرخي الهمم. والمعتقدون بالقضاء والقدر يقبلون الضيقات

والشدائد وسائر الأحوال الاجتماعية على علّتها لأنها صادرة في اعتقادهم عن مشيئة الله مباشرةً فلا فائدة والحالة هذه من مقاومتها. فالأم المسلمة مثلاً قد ترى الذبابة الحاملة الرمد الصديدي تقع على عين طفلها فلا تطردها إذ تعتقد أن الله هو الذي قادها إلى هناك. والحكم المسلم قد يرى مملكته في تأخر وشعبه في تقهقر فلا يحاول إصلاح الأحوال لأنها صادرة على اعتقاده من مشيئة الله. وهكذا قلّ عن سائر رجال الأشغال والأعمال. ولا شك أنه لو اعتقد أحد هؤلاء بوجه من وجوه إرادة الله تعالى لحاول تنفيذها على أحسن ما يرام. ولكنني أقول بالأسف أنني لا أرى في الإسلام حثاً على التقدم المستمر وتشجيعاً على الشروع بالأعمال العظيمة لأن المسلمين يعتقدون أن إعلان الله للإنسان قد تم وأن زمان العزّ والمجد قد انقضى. وهذا هو سبب العقم الذي نجده في التهذيب الإسلامي في الزمن الحاضر على كل حال»

عبد الفتاح: «التاريخ القديم يفند أقوالك. فبماذا تشبه حمية النبي والصحابة والخلفاء الأولين وقواد الحروب المسلمين

الذين افتتحوا العالم المعروف يومئذٍ وشادوا البلدان والممالك في طرفة عين؟»

توما: «إن كلامك هذا لأحسن شاهد على ما قلته أنا سابقاً فإن ما كان بيديه أولئك الرجال لم يكن يخرج عن شبه نوبات وقتية لأنهم كانوا يعتقدون أن إرادة ربانية خاصة تدفعهم وتحرضهم على المجاهدة في سبيل الله وذلك كانوا متى فتر ذلك الاعتقاد تنقلب همهم إلى فتور وعزائمهم إلى تراخٍ كما بينته فيعودون إلى الاعتقاد بأن الله يفعل ما يشاء وأن الإنسان ليس سوى نفخة من العدم»

حسين: «وكيف ترمي الإسلام بمثل هذا الخمول حالة أن بغداد والقاهرة وكردوفا كانت مراكز التمدن للعالم في العصور المتوسطة»

توما: «إن اليد الواحدة لا تصفق والشعرة الواحدة لا تكون لحيةً. ولكن قل لي بحقك ما مصدر ما تحلت به المدن المذكورة من العلوم والفنون والفلسفة؟ أليس ذلك اليونان والعرب الجاهلية وأفراد من المسيحيين؟ والغريب أن ارتقاء تلك المدن في العلوم والفنون كان على رغم (لا بسبب) علماء

الإسلام الحنفيين الذين كانوا يخدمون روح الاجتهاد في الفكر والعمل كثيراً؟»

فهمني: «يخال لي أن في كلامك ما يستدعي التمعن والتروي. حقاً إننا في حاجة إلى رأي يعلل لنا سبب الخمول الذي قد استولى على البلدان الإسلامية منذ القرن الخامس عشر الميلادي إلى هذا اليوم إن كان من الوجهة الاجتماعية أو التجارية أو العلمية حالة كون الممالك الغربية تسعى وتجد في سبيل المجد بغيره لا تعرف الكلل. أجل أن الشرق الإسلامي لا يزال في سبات عميق»

توما: «أوليس ذلك غريباً. نعم أيها الأخوة. وما سببه إلا ما ذكرته. وهو أن رأي المسيحيين في ذات الله هو الذي يحثهم على السعي والتقدم حالة كون الرأي الإسلامي يحول عيون المسلمين إلى الوراء — إلى الماضي — ويقنعهم (إلا في أحوال نادرة) بحالتهم الحاضرة»  
حسين: «حقاً أنه لمن الصعب أن ننكر ذلك»



## الفصل الخامس

تأثير رأي الإسلام في الله في أخلاق الإسلام

### (٢) باعتبار (المحبة)

في الجلسة التي عقبها المباحثة في آداب الإسلام أخذ الكثيرون من الأعضاء يتباحثون فيما بينهم في هذا الموضوع وممن اهتموا خصوصاً بمصير الأحوال في هذه المباحثات ودخول المباحثة في حيز الأخلاق الشيخ حسين الذي كان من أشد الأعضاء مقاومةً للإنجيل عند البحث في «ماذا حدث قبل الهجرة» والمباحثات التي عقبها

أما الشيخ عبد الله فإنه بعد أن أظهر الروية والتعقل انقلب إلى تراخ وعدم اكتراث. فأهمل البحث عن الحقيقة وازداد مقاومةً لأصحاب الآراء الجديدة بقدر ما قلَّ اكترائه بوجودان الحقيقة. ولعل الذي أثر في عقله ابن عمه الشيخ رضوان الذي كان حاضراً في الجلسة الافتتاحية وترك الجلسة تائراً غاضباً لما سمعه في أثناء المباحثة. ولم يعد يُرى بعد ذلك في الجمعية إلا



نادراً ويظهر أن قصده من الحضور أحياناً لم يكن إلا لإثارة الخواطر على توما وأتباعه وفي يوم الخميس بعد الاجتماع الأخير كان توما ماشياً في شارع شبرا بقرب عطفة روض الفرج فلاقاه أربعة رجال وكان أحدهم من رفاقه قديماً في الأزهر وأما الثلاثة الباقون فلم يكن يعرفهم. فحيوه جميعاً بطريقة مهينة واخشنوا معه الكلام بما ينافي الآداب ثم لطموه على خده وأوسعوه رفساً وركلاً وتركوه نصف مغمى عليه.

إلا إن ذلك لم يمنعه من حضور الاجتماع في الجلسة التالية وكانت آثار الضرب لا تزال باقية عليه فاجتمع حوله كل الأعضاء مدهوشين بما به وأخذوا يعزونه. ولكنه أظهر عدم اكتراثه بالضرب وقال «ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده» فقال حسين «وماذا تعني؟» قال «أعني أن سيدي يسوع المسيح تألم مثلي فلم يطلب النعمة. وإنني لست أدهش إذا عاملني الناس بمثل ما عاملوا به سيدي يسوع وهو قد أعطانا وصية بهذا الخصوص لأنه علم أن الناس ستعاملنا بمثل ذلك»

فقال الشيخ رضوان: «وماذا تنتظر فإنك قد ارتددت عن الإيمان ولعمري أن الشريعة تسوغ الإساءة إليك بأكثر من ذلك»

فقال توما: «أليس من الغريب أن القرآن يأمر بالנקمة ويسوغه للمؤمنين في بعض الأحوال إذ يأمرهم أن يعاملوا غير المؤمنين المعاندين بأشد ما يمكن وأن يقتلوا كل من هجر الإسلام حتى أن كثيراً ما نفذت النكمة قولاً وعملاً في زمن النبي. وأما المسيح فقد قال «احبوا أعداءكم... وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم»

وعند ذلك دخل عضو جديد يُقال له محمد أفندي لطفي وهو أحد طلبة الحقوق وقد كان من تلاميذي المرحوم الشيخ محمد عبده وله كتاب في المناقشات بين المسلمين والنصارى. إذ سمع الآية المقتبسة قال: «إن هذه الروح لا توجد البتة لأن حب النكمة أمر طبيعي في الإنسان بل أمر جائز. فالديانة التي تحاول بث روح كاذبة في قلوب أتباعها وتغيير الطبيعة البشرية هي ديانة كاذبة. وأما الإسلام فإنه الدين الحقيقي لأنه يحاول

---

إصلاح الطبيعة البشرية لا تغييرها. وما الآية التي اقتبستها يا توما أفندي — إن صح أنها حقيقة من كلام المسيح — سوى وهم لا فائدة منه»

توما: «ولكن كيف تحسبها وهماً حالة كون المسيح قد أثبتنا فعلاً ولقد شرفني البارحة فسمح لي أن أثبتها أنا أيضاً فذهبت إلى البيت ورأسي قد ألمّ به صداع شديد ولم يخامر قلبي إلا الصلاة بأن يهتدي أولئك الرجال سيما صديقي القديم وهكذا صليت لأجلهم عن محبة لا عن بغض»

وحدث عند ذلك سكوت فاستاق توما الكلام قائلاً: «أفلا أنسب هذا الأمر إلى ما تسمونه أنتم مستحيلاً — أي إلى طبيعة متغيرة لأنني قبل دخولي في النصرانية كنت أنظر إلى المسيئين إليّ بنظر آخر»

فلم يبد محمد جواباً وشخص حسين بنظره إلى الفضاء غائصاً في بحر من الفكر. وأما الهندي فقال: «إنني عثرت البارحة على ورقة مطبوع على أحد وجهيها ما يأتي بهيئة عمودين متوازيين»

<p>صلاة يتلوها المسلمون في مجامعهم لأجل المسيحيين كل يوم جمعة</p> <p>(اللهم يَتِّمَّ أطفالهم ورمّل نساءهم واجعلهم ورثة للمسلمين)</p> <p>«فاحكموا!»</p>	<p>صلاة رسمية يتلوها المسيحيون لأجل المسلمين في يوم الجمعة العظيمة</p> <p>(أيها الإله الرحيم الذي خلقت الناس أجمعين ولا تبغض شيئاً مما خلقت ولا تشاء موت الخاطئ بل تشاء له بالحري أن يرجع فيحيا ارحم كلاً من اليهود والمسلمين واذهب عنهم كل الجهل وقساوة القلب والتهاون بكلمتك وأرجعهم إلى محل قطيعك أيها الرب المبارك ليخلصوا مع بقية الإسرائيليين الحقيقيين ويكونوا رعية واحدة تحت راع واحد بربنا يسوع المسيح آمين)</p>
--	---

توما: « إنني أترك لكم الحكم في هذا الأمر. إلا إن الغريب أن حادثة البارحة قد ساقطنا  
إلى نفس الموضوع المعين للبحث في هذه الجلسة. فلقد طلبتم مني أن أبين العلاقة بين اللاهوت  
الإسلامي والآداب الإسلامية. وتذكرون إنني سابقاً بيّنت الخلل الكائن في الديانة الإسلامية وذلك  
بنسبتها التنزيه

المطلق المغالى فيه إلى الله مما يؤثر في الآداب الإسلامية تأثيراً سيئاً. وأول وجوه ذلك الخلل افتقار الديانة الإسلامية إلى روح الإقدام والاختراع في الأعمال مما بحثنا فيه سابقاً. والثاني — وهو موضوع بحثنا في هذا اليوم — هو عدم اكتراث الآداب الإسلامية والتاريخ الإسلامي ببعض الصفات من مثل المحبة والرفق بالغير وبذل النفس وهلم جراً. وإنني أنسب هذا الخلل أيضاً إلى نفس المصدر الذي نسبت إليه ضعف روح الإقدام أي إلى كونكم تحولون سائر صفات الله إلى الإرادة والقوة المطلقتين وإلى أنّ التنزيه يحرم نسبة المحبة أو التضحية بالنفس إلى الخالق»

محمد: «إنني أنكر كل ما قلت سوى نسبة التضحية بالنفس إلى الخالق إذ حاشا له أن يضحى بنفسه تعالى: (أكثر الأعضاء المسلمين: نعم نعم) إن ذلك دليل الضعف ومن نسب الضعف إلى الخالق فقد كفر!»

توما: «يخال لي أننا يجب أن نشرح معنى القوة والضعف باعتبارهما المادي والأدبي. فالقوة لا تكون أدبية ضرورة إذ قد تكون في البهيمة أو الآلة الميكانيكية. وأما القوة الأدبية

فشروطها مختلفة. فلا يجب الخلط بين القوتين ومن فعل ذلك فقد ينسب إلى الله قوة مستبدة آلية لا تحس ولا تشعر. وإذا كنت يا محمد أفندي تتكر على الله صفة التضحية بالنفس فلا تدهش إذا لم تجد لها أثراً»

محمد: «أو تريد أن تجعل الله كالإنسان؟»

توما: «بل بالعكس أن أجعل الإنسان كالإله!»

وكان توما يريد أن يتكلم أيضاً ولكن محمداً قطع كلامه وقال وهو متأثر:

«إن كلامك ليس في محله يا توما أفندي! فكيف تتكر على الإسلام نسبته المحبة إلى الله حالة كون القرآن كثيراً ما يقول ما معناه إن الله يحب المؤمنين والعادلين الخ؟»

توما: «إن الآيات التي تشير إلى ذلك نادرة وقليلة الأهمية لأنها عرضية ولا نجد بينها ما يجعل للمحبة أهمية حقيقية كما في كتابنا الإنجيل حيث يقول إن «الله محبة!» هذا وإن كتبكم تقول إن المحبة إنما هي مظهر من مظاهر رضى الله تعالى غير المسؤول عن مصطفى وما مصطفى. وهذا يرجع بنا ثانية إلى مجرد الإرادة»

حسين: «نعم ولقد عثرت اليوم على نفس هذا القول في أحد الكتب المدرسية المصرية»  
محمد: «ولكن كيف تنكر على المسلمين بذل النفس مع أن في نفس اللفظة — أي  
«الإسلام» ما يشير إلى ذلك؟ وليت شعري بماذا تقابل أتعاب النبي (صلم) ومجاهداته في سبيل  
الحق؟ بل بماذا تشبهه غيره الصحابة وألوف العساكر المسلمين الذين احتملوا الصعوبات  
والجراحات والأخطار في حروبهم الدينية حياً بالله وبنبيه؟ فما قولك في كل ذلك؟ أليست هذه  
الأتعاب دليلاً على بذل نفس لا مزيد عليه؟»

توما: «إنني أعجب بسلوك النبي في أوائل مجاهدته عن الحق واحتماله اضطهاد  
مضطهديه واعتقد بأنه كان يفعل بنفس روح المسيح الذي تتكرون أهمية احتماله مثل هذه الأتعاب  
وأكثر منها كثيراً في سبيل الحق. ولكن لماذا لم يستمر النبي بتلك الروح؟ لأنه رأي هو وسائر  
المسلمين أن احتمال المشقات في سبيل الحق يجب أن يكون لميعاد محدود فقط أي طالما يكون  
المُحتمل ضعيف الموقف. ولذلك لما اشتد موقفهم قوةً وزاد عددهم استخدموا تلك القوة لاضطهاد  
أعدائهم كما

أُضْطَهَدُوا. فأين هذا من المبدأ الذي تجاهر به الديانة المسيحية (والذي أثبتته يسوع المسيح بنفسه) والقائل إن نفس احتمال المشقات في سبيل الحق نصره حقيقية. وإن من يصبر حتى الموت لا بدّ له من الغلبة أخيراً»

محمد: «إنني لا أرى الفرق في هذا التمييز»

الهندي: «عفوك إنني أراه واضحاً جداً»

محمد: «ولكن المسلمين كثيراً ما ضحوا بأنفسهم حتى الموت في سبيل الله»

توما: «ومتى ذلك؟»

محمد: «مراراً كثيرة في الحروب الدينية»

توما: «أتعني حين كانوا يجرون دماء أعدائهم سيولاً وأنهاراً؟ أبهذا تستشهد على بذل الذات والتضحية بالنفس؟ وهل نسيت أن مباحثتنا دائرة على موضوع «المحبة» وبذل النفس لأجل الآخرين»

محمد: «ولكن لماذا تتكر أن أولئك الأبطال حالة كونهم احتملوا صنوف الشقاء لنشر

الإسلام على كل الأرض كانوا يفعلون ذلك لشدة محبتهم للأمم الوثنية فحاربهم ليأتوا بهم إلى



ربوع الإسلام وفي أثناء ذلك قتلوا بعضاً منهم من غير قصد؟»

توما: «ولكن هذا لم يكن الواقع. فإن التاريخ يبيّن لنا أن ما أضرم تلك الحروب الدينية لم يكن محبة المسلمين للكفار بل اعتقادهم بأن الله هو الأمر بإشهار تلك الحروب وأن جزاء من يُقتل فيها من المسلمين الفردوس وحورياته وجنات تجري من تحتها الأنهار وهلم جراً وأن جزاء من يبقى حياً ما يغنمه من العدو. ومن أحجم عن الجهاد فقد استوجب عذاب نار أحر نار الجحيم أبردها»

حنا: «نعم فمن المضحكات القول بأن المسلمين اظهروا من نحو الكفار والمرتدين إلاّ الغيظ الشديد أو على الأقل عدم الاكتراث. وأما التضحية بالذات وبذل الحياة والحزن والشقاء وغير ذلك مما يعمل على إنقاذ الكافر أو الخاطئ فلا أثر له في الإسلام مع أن ذلك هو المحبة بعينها كما علمنا المسيح لا ما ذكر محمد أفندي»

محمد: «يا له من ضعف فاحش!»

توما: «ولكن بهذا يقوم مجد التاريخ النصراني منذ عهد المسيح — الذي بكى على أورشليم وسفك دمه الخاص لا دم غيره

في سبيل رد الخاطيء لا في سبيل محاربتة إلى عهد القديسين والشهداء الذين لا فائدة من ذكر أسمائهم حتى شهداء هذا الزمن كلقستون وگردون مثلاً اللذين ضحيا بنفسيهما حباً بخير البشر وإنقاذهم. وإنني مستعد بكل سرور أن أفعل نفس ما فعلاه لاكتساب نفس واحدة للمسيح»

الشيخ رضوان: (همساً) «يا له من كافر! حقاً إنه يستحق الموت ولكن ليس «من أجل الآخرين» بل عبرة لهم وذكرى!»

محمد: «ولكن لماذا تتكلم عن المحبة والبكاء وسفك الدماء؟ إن هذا خلط مبين! ترى ما هي الخطيئة لكي نهتم بها كل هذا الاهتمام؟ إن الله خلق الناس كما شاء وهو الذي سيدينهم في اليوم الآخر فتقطع جهيزة كل خطيب»

توما: «إنك بكلامك هذا تأتي بنا إلى الخلل الثالث الذي أشرت إليه في الكلام عن الآداب الإسلامية وهو جهل معنى القداسة المنسوبة إلى الخالق وإلى المخلوق. فما قاله توما الآن يبين لنا أن المحبة ضعف الاهتمام بالخطية. فلنبحث في هذا الأمر في المرة القادمة»

---

عبد الفتاح: «إنني لو اعتبرت هذه الوجهة الأدبية وتمعنت فيها كما يجب لكنت ترويت أكثر قبل أن أصيرَ مسلماً ولكن صديقي محمداً كان يشير إلى وحدة الله واستحالة التجسد والمناقضات الموجودة في التوراة والإنجيل فيظهر أنني كنت مخطئاً»

حسين: «إنني واقع في حيص بيص مما قد سمعته اليوم»

عبد الله ورضوان: (معاً على انفراد) «وأنا أيضاً»



## الفصل السائر

تأثير رأي الإسلام في الله في أخلاق المسلمين

### (٣) باعتبار القداسة

وعند ختام المباحثة عن موضع المحبة من اللاهوت الإسلامي والآداب الإسلامية زاد اهتمام الأعضاء بهذه المباحث وشوقهم للنظر فيها عملياً لا نظرياً. وقد اعترف عبد الفتاح لتوما مراراً أنه لو تمعن في وجهة الموضوع الأدبية ما أسرع إلى تغيير ديانته بدون تروٍ وأن ما حمله على الإسلام هو ما رآه من الصعوبة في إدراك مذهب التثليث بخلاف السهولة التي وجدها في مذهب التوحيد

أما محمد لطفي العضو الجديد فإنه ظل مناقضاً لتوما أفندي إلا إنه كان يحترمه شخصياً ويظهر أنه قلماً كان يهتم بوجهة الموضوع الأدبية وكان يعتمد كثيراً جداً على مقدرته وقواه العقلية. أما الشيخ حسين فإنه ازداد اهتماماً وتمعناً بالأمر فكأن وتراً خفياً في حواسه مسّ فأيقظه للتفكير والتمعن حتى لم يعد

يتكلم كثيراً في الاجتماعات. وكثيراً ما شوهد هو وتوما أفندي يتحدثان بغيرة في طريق العباسية. وكانت جراحات توما قد أخذت بالالتئام وفرح قد زاد لأن الله سمح له أن يتألم من أجل اسمه. ولم يبقَ من الأعضاء أحد مماكك إلا عبد الله الذي ازداد مقاومةً أكثر فأكثر. ولم يكن هذا عن ازدياد غيرته الدينية بل عن تعصب ضد جميع من لا يدينون بدينه. وكان هو والشيخ رضوان متفقين في الآراء وهما ينظران إلى توما بعين الاشمئزاز

وهناك خلاصة ما دار بين الأعضاء في الاجتماع التالي من المباحثة

توما: «إن موضوعنا في هذه الجلسة هو تأثير عقيدة التنزيه الإسلامي في آراء الإسلام عن قداسة الله وقداصة الإنسان. ولكوني قد اختبرت الإسلامية والنصرانية معاً لا أبالغ إذ قلت إن الإسلام هو خلو مما يسند القداسة إلى الله. نعم إن «القدوس» هو أحد أسماء الله التسعة والتسعين ولكن كلما بحثنا عما وراء هذا الاسم ازداد البحث صعوبةً. وإذا كان إخواننا المسلمون ينكرون ذلك فليفيدونا عن المقصود منه»

عبد الفتاح: «إنني لا أرى صعوبة في ذلك البتة فإن قولنا «قدوس» يشير إلى الرفعة والسمو عن كل الخليقة»

كوهين: «هذا أحد المعاني التي أولّ بها أنبيأؤنا الأقدمون هذه اللفظة. ولكنهم توسعوا تدريجاً في هذا التأويل فإن إشعياء مثلاً لما أبصر الله في رؤياه وسمع سكان السماء يهتفون قائلين «قدوس! قدوس! قدوس!» رجع إلى نفسه وأدرك دنسها الأدبي وقط لم يخطر له ببال ساعتئذ أن المقصود من لفظة «قدوس» هو السمو أو اللانهاية فقط»

توما: «شكراً لك يا كوهين أفندي على هذه الملاحظة المفيدة أوّما ترى يا عبد الفتاح أفندي أن تفسيرك للفظه القدوس ضعيف جداً لأنه إنما يرجع بنا إلى التنزيه إذ إن السمو والرفعة هما بهذا المعنى وليس فيهما معنى جديد؟»

عبد الفتاح: «كيف ذلك؟»

توما: «لأنه لا يمكننا أن ننسب إلى الإنسان القداسة التي ننسبها إلى الله إذا كان المقصود منها فقط السمو والرفعة أي التنزيه»

عبد الفتاح: «لا شك أن هذه عقدة مشكلة»

توما: «مشكلة على المسلمين الذين ينكرون وجود شبه بين الله والإنسان وليس على المسيحيين الذي يعتقدون أن الله خلق الإنسان «على شبهه وصورته» وسهل له الطريق أن يبلغ مثاله في القداسة»

الهندي: «إن عبد الفتاح أفندي قد تسرّع في تسوية القداسة بالتنزيه إذ لا بدّ لهما من معنى أدبي. ولكن الصعوبة هي – كيف يمكننا أن نقصد الصلاح الأدبي بقولنا إن (الله قدوس) فإن الصفات الأدبية كالعفاف والعدل وغيرهما هي من خواص البشر ولا علاقة لها بالإله أو بما يختص به. فكيف إذاً أن ندعو الله قدوساً بهذا الاعتبار بل كيف يمكن أن ندعوه صالحاً؟»

عثمان: «إن الله جعل بعض الأمور حلالاً وبعضها حراماً. فالأولى تفضي إلى النعيم والثانية إلى الشقاء. أما قداسته تعالى فهي قائمة في كونه يريد أن يسير الناس بحسب الأمور الأولى ويغضب على من يخالف ذلك»

توما: «إنك قد ذكرت هذا قبلاً وهو يبين إنك إذا حاولت وصف الله تعالى بمظهر إيجابي فلا يمكنك أن تتجاوز

حيز القوة. لأن قولك هذا إنما يفيد أن الله يريد أو يشاء بعض الأمور فينفذها بقوة سلطانية. وهذا أيضاً لا يدل على وجود عنصر أدبي في القداسة»

أحمد: «حقاً إنني لم أنسب قط إلى القداسة معنى أدبياً ولا أظن أن أحداً من المسلمين فعل ذلك»

توما: «ذلك لخلل عظيم. فكيف يمكن أن يحب الناس القداسة وهم لا يرون لها أثراً في الإله بل يرونها اسماً بلا مسمّى؟ ومن ينكر إذاً أن الآداب الإسلامية واللاهوت الإسلامي هما خاليان من معنى القداسة؟ وما أعظم الفرق بينهما وبين القداسة التي نجدتها في سيرة المسيح وتلاميذه بل في سيرة كل من أخلص الطوية في اقتفاء آثاره وآثارهم فتراءى له الله القدوس بمظهر إيجابي حقيقي»

حنا: «اسمحوا لي أن أتكلّم عن التسوية التي يحاول المسلمون إظهارها بين قداسة الله وإرادته»

إن نفس أصول هذا المذهب فاسدة. ذلك لأنه إذا كان الله هو الذي يفعل كل شيء فمن الغباوة أن يلام الإنسان على أي شيء كان. وإذا سنّ الله قانوناً يجعل بموجبه بعض الأشياء



حرماً. ثم سنّ قانوناً آخر يقدر بموجبه بعض الناس أن يقترفوا ذلك الحرام فلماذا إذاً الغضب الذي يظهره على هؤلاء المساكين وما معنى النعمة التي يحاول أن ينزلها بهم؟ أليس ذلك من ضروب الخلط؟»

توما: «أجل والأهم من ذلك إن أصحاب هذا المذهب — ومعظم المسلمين منهم — لا يحب أن يبغضوا الخطيئة كما يجب لأنها مقدره لهم فلا يمكنهم أن يكرهوها أو يشعروا بغضب الله على من يقترفها»

عبد الله: «ما أن جميع مساعينا في تقرير ماهية القداسة في الإنسان ونسبتها إلى الله قد ذهبت سدى فاسمح لي أن أبسط رأيي. إن المسئلة بسيطة جداً. فالله يظهر قداسته بتحريمه بعض الأمور وجعله لها عواقب وخيمة مؤلمة في كل من هذا العالم والعالم الآتي. وأما الإنسان فإنه يظهر قداسته بتجنبه هذه الأمور وبغضتها بسبب عواقبها الوخيمة والعكس بالعكس»

توما: «رأي سخيف حقاً! إن كان الأمر هكذا فأنت لست تحب القداسة وتكره الإثم بل إنك ترغب في جزاء الأولى وتخاف عقاب الثانية. إذا كان الأمر هكذا فقد حولت

القُداسة إلى مجرد سياسة أو تبصر بمصير الأمور. فكيف يمكنك حينئذٍ أن تدعي أنك تبغض الخطيئة بضمير صالح أي لأنها تنافي صفات الله وتحزن قلبه تعالى؟»

عبد الله: «ما هو الضمير وما هي طبيعة الله المقدسة؟ بل أي تأثير لخطايانا في ذات الله؟ إنه تعالى لا يسمح لأمر من الأمور أن يؤثر في ذاته أو يحزنه ولعمري أن مثل هذا الكلام لكفر ميين»

توما: «إذاً كيف يمكنه أن يغضب والغضب لا يخفى عليك من العواطف كما هو الحزن»  
عبد الله: «إنّ الغضب هنا هو بمعناه المجازي والمقصود منه فقدان النعمة. فالله لا يشعر لأن الشعور دليل الضعف»

توما: «ولأية الأسباب ينعم أو يغضب؟»

عبد الله: «إنه غير مسؤول عما يأتيه لأنه يفعل ما يشاء»

توما: «إنك بهذا تعود بنا ثانيةً إلى الصورة الإيجابية الوحيدة التي لك عن الله وهي الإرادة المجردة الخالية من العنصر الأدبي وأنا لا أرى فيها صفة من صفات الله المعلنة لنا بيسوع المسيح. فأنتم تمثلون الله إلهاً منزهاً عن الكل سلطاناً مستبداً

مهوباً. وأما نحن فإننا نصوره إلهاً قدوساً محبباً أباً ملكاً يخشى منه ولكنه محبوب»

توما: «هنالك سبب آخر يصعب على المسلمين من أجله أن يحبوا القداسة أو يبغضوا عدم القداسة وهذا السبب هو اعتقادهم أن إرادة مطلقة مستبدة شاءت أن تكون بعض الأمور حلالاً وبعضها حراماً. وبحسب هذا المذهب قد يجوز أن يثاب الحرام ويعاقب الحلال. أفيمكن إن شاءت الإرادة المطلقة أن تحرّم اليوم ما كان حلالاً البارحة وبالعكس؟»

عبد الله: «أجل لو حصل ما ذكرت لسمينا الحرام حلالاً بدون مناقشة الله الحساب لأنه غير مسؤول عما يفعل»

الهندي: «يالله ما أسخف هذا الرأي — ومع هذا فإن بعض علماء الإسلام لم يتأخروا عن أن يبيّنوا هذه النتيجة وفقاً لعقائد التنزيه المغالى فيها وقدرة الله المطلقة وعدم مسؤوليته وعدم ثبوت القداسة فيه جوهرياً»

حنا: «إنه ممكن بحسب المذهب الإسلامي لأن الحرام بهذا الاعتبار ليس شراً في حدّ ذاته أو لأنه ينافي صفة الله الجوهرية بل إنه حرام بمقتضى الإرادة المطلقة وشرّاً لأن

القصاص الذي يترتب عليه هو مرتب لما أشبهه بضرورة خارجية وليس لأنه لا يمكن أن ينتج عنه شيء آخر. وإذا كانت العلاقة بين الحرام والعقاب المترتب على هذا الحرام خارجية فقط ومتعلقة على مجرد مشيئة الإله فمن الممكن أن يعكس هذا الإله الآية يوماً ما إذا شاءت إرادته أن يحلل ما كان قد حرمه. ونفس لفظتي «الحلال والحرام» تشهدان بصحة رأيي إذ تشيران إلى قوانين في لائحة قد أصدرتها إرادة حاكم غير مقدس في ذاته أو شرير في ذاته وحقاً إن هذا كان معتقدي لما كنت مسلماً إذ كنتُ أظن أن نطاق هاتين الكلمتين يشبه قانوناً لحفظ النظام وأن تجاوزه يسيء الحاكم الذي اشترعه لأنه ينافي إرادته ويفسد ترتيبه ويحزنه (وإن يكن هو نفس من أراد هذا الإفساد!) فكيف يمكن أن نتصور أن مثل هذا الحاكم يحب القداسة ويكره الخطيئة أو ليس هذا خلافاً عظيماً في الآداب الإسلامية؟»

عبد الله: «إن العبد قد يثور على مولاه وهذا هو الإثم بعينه — فماذا تطلب بعد؟ هذه كلمتي الأخيرة في الموضوع»

توما: «إن العصيان هو أصل الخطيئة في الحقيقة ولكن أين هي الخطيئة نفسها أي قائمة بتجاوز وصية ملك مهوب أو التعدي

على وصية أب محب؟»

عبد الله: «بل هي قائمة بالأول لأنّ الثاني من شؤون البشر غير اللائقة بالله»

توما: «وهذا فرق آخر بيننا وبينكم فالهكم هو إرادة مجردة وإلهنا هو محبة محضة»



## الفصل السابع

ناكر نفسه

وبعد إقبال باب المباحثة في تطبيق اللاهوت الإسلامي على الآداب الإسلامية بانَ بأكثر وضوح أن المباحثات قد خلعت قميص النظريات تدريجياً واتخذت ثوباً عملياً فأثرت فعلياً في أحوال الأعضاء وظهرت آثارها فيهم بطرق مختلفة متباينة فزادت حسيناً تمعناً وتفكيراً حتى أنه صار يطالع بشوق الإنجيل الذي كان يسلقه بالأسن حداد قبل ذلك بعام (في يوم شم النسيم) فكان يقرأه في أثناء مسيره أو جلوسه تحت أروقة الأزهر وكثيراً ما شغل بمطالعتة عن سماع خطب أستاذه في الشرع الإسلامي حتى أنه لم يكن يفارقه في غرفته في السكة الجديدة ولا يطرحه من يده إلا وقد غلبه النعاس

وكان أحمد الهندي أيضاً يشعر بطرود أزمة غريبة في حياته ويقول لعبد الفتاح (القبطي الذي أسلم) — «إن من مساوئ نفسي أنها تنزع إلى درس كل الأشياء والتعليل عنها. فأنا أنفق

أيامي والليالي في البحث عن أمورٍ روحيةٍ أدبيةٍ والتفكر فيها حالة كوني لا ألتصق بها عملياً. إنني قد تحققت منذ زمن طويل صحة الإنجيل وعلمت أن التعاليم التي يجاهر بها تقنع العقل والقلب والضمير بطريقة لا يمكن لتعاليمنا أن تقوم بها — فأنا لست بعد مسلماً ولكنني لم أصر بعد مسيحياً. وإنني أعلم أن ترددي هذا هو وصمة عار تشين صفتي فلذلك أنا محتاج إلى ما يقويني على البت في الأمر. ترى لماذا لا يصح أن يتمسك الإنسان بعقائده سراً؟ إنني أسأل هذا السؤال وأنا عالم إن الجواب هو أن الدين يجب أن يكون عملياً في هذا العالم وأن أعمال الإنسان يجب أن تكون طبق أفكاره»

عبد الفتاح: «وهناك خطر آخر وهو أن تتدم بعد زلة القدم. إنني اعتنقت الإسلام. ولكنني قد رأيت في أقوال توما وسيرته (التي لاح لي من خلالها سر القوة والنعمة) ما أظهر لي ضعف رأبي وأراني أنني فعلت ما فعلت عن جهل لا عن معرفة كما ظننت حينئذ»

أما الشيخان عبد الله ورضوان فإنهما ازدادا غضباً وحنقاً على هؤلاء الأعضاء الذين ظنناهم قد زاغوا عن السبيل القويم

وتمردوا وكان أشدَّ حقدَهما على توما لأنه كان سبب تلك الأمور

فقال الشيخ رضوان ذات يوم: «حقاً إن إثم هذا الإنسان لأعظم من أن يُقابله عقاب. إنني مشتاق أن أراه يوماً ما ينال ما يستحق ويصيبه من الضرب المبرح ما لن ينساه»

— «وأنا مشتاق أن أرى ذلك. إن توما جبان ولعل ما ذكرت يكون خير دواء لدائه فيرجع إلى الصراط القويم»

— «أجل وإذا لم يرجعه إلى صوابه فيكون قد نال ما يستحق»

— «لا شك في ذلك. على أنني متيقن أن هنالك بعضاً من المسلمين لا يوافقوننا على رأينا هذا. فإذا بلغهم أن توما قد أصابته أذية منا وبخونا بحجة أن ذلك يناقض تعاليم القرآن»

— «ربما!. ولكنني أريد أن أعلم لماذا يكون في البلاد قانون يحرم ما هو حلال في شرعنا. إن هذا الأمر يغيظني جداً. ولو كنا عائشين في بلاد يسري فيه شرعنا ما كنا نرى أموراً مثل هذه. انظر إلى الحال في تركيا لا تجد لهذه الفوضى من أثر»



— «لقد أصبت. إنني سمعت شيئاً مضحكاً البارحة فقد كنت في المحافظة لقضاء أمر فسمعت قسيساً يشكو شرطياً إلى ضابط الشرطة لتهاونه في حماية رجل منتصر. وماذا تظن ضابط الشرطة قال للقسيس؟ قال له يا حضرة القسيس إن الجاويش معذور في عدم حمايته المضروب ولو ترك لضميره وشريعته لفعل نفس ما تطلب منه الآن أن يمنع»

فضحك الشيخ رضوان ضحكة استهزاء وقال: «على كل حال يجب أن نفعل كل شيء سراً لأننا سنناقش الحساب عن كل ما فعله أمام المحاكم. وإنني أخشى إن نحن مسسنا توما بسوء نعاقب عليه عقاباً شديداً»

— «فكيف العمل إذاً»

— «عندي طريقة لذلك. إن توما يسكن في شبرا وهو ذاهب غداً ليزور حسيناً في السكة الجديدة لأنني سمعتهما يضربان موعداً لذلك ولست أعلم متى يعود إلى بيته ولكنني أعلم أنه متى رجع فسيمر في دغلة الأشجار التي في طريقه بين شارع شبرا وشارع الخراب. فلنكن له هناك ونعلمه أمثلة لن ينساها مدى الحياة»

فقال عبد الله: «حسناً ولكن لنأخذ حسناً معناً لأنّ توما لا يعرفه ومن صالحنا أن لا ندع توما يعرفنا»

— «هه! وماذا يهمننا إن عرفنا؟ إنه لا يقدر أن يفعل شيئاً بدون شاهد. ونحن ما علينا إلا أن ننكر كل شيء. أتظن ذلك حراماً؟»

— «كلا ولكن الأحسن أن لا ندع توما يعرفنا»

— «إذا فافعل كما ترى»

وفي يوم الجمعة التالي بعد أن قضى صاحبانا فرض الصلاة أوريا إلى مكانٍ منفردٍ وأخذاً يتفاوضان في تنفيذ ما دبراه. ولما أقبل الليل شوهد في الحقل الذي بين شارع روض الفرج وشارع الغراب ثلاثة رجال ملتقين بأعبئة سوداء (لتقيهم على ما يظهر من برد الليل) وكانوا يحاولون الاحتجاب وراء الأشجار لكيلا يشاهدهم أحد. وكان البدر يلوح من خلال الغيوم من وقت إلى آخر والسماء تمطر رذاذاً

وبعد قليل سمع وقع أقدام في الطرف الآخر من الطريق المؤدي إلى الحقل (الغيظ) ثم انجلى الصوت أكثر فأكثر وسمع القادم يرتل ترنيمة مسيحية

فقال الشيخ رضوان مستبشراً: «ها هو آتٍ فلنستعد له» ولما مر برز إليه الثلاثة من مكنهم وانقضوا عليه فبغت الرجل ولم يبدِ حراكاً فأمسك به اثنان وخاطبه الثالث بما يأتي:

«أيها الكافر! كيف ارتددت عن الدين القويم. إن الجحيم ستكون مقرك إن لم ترجع إلى الصراط المستقيم. ماذا تقول؟»

ولكن المسكين كاد يختنق بين أيديهم فقال: «إن مخلصي يسوع المسيح قد غلب الجحيم وأنا له إن في هذا العالم أو في العالم الآتي...»

— «أخسرُ أيها اللعين ولا تتفوه بهذا الاسم — ألا تهجر دينك الكاذب؟...»

— «أنكر المسيح؟ كلا!...»

— «إذا فنلُ جزاء غباوتك»

وإذ قال ذلك ضربه كل منهما ضربةً شديدةً على أمّ رأسه. وكان توما يحاول التملص من قبضة عبد الله ورضوان ولكن الضربات انهالت عليه فسقط على الأرض لا يبدي حراكاً. وعندئذٍ سمع وقع أقدام مسرعة. فرأى الثلاثة أنّ الفرصة

---

أضيق من سمّ الخياط فتركوا توما وهربوا ولم يتبعهم أحد لأنّ القادم الجديد كان آتياً في ذلك الطريق صدفةً. أما أصحابنا الثلاثة فما عتموا أن بلغوا السكة العمومية واختلطوا مع المارة. وفي أثناء سيرهم قال رضوان: «إننا قد علمناه مثالة حسنة لا أظنها تمسه بسوء ولكنها ستفيده كثيراً جداً. وعلى كل حال فإنها أقل مما يستحق»



## الفصل الثامن

ناكر نفسه

(تابع)

هذا ما كان من أمر أصحابنا وأما ما كان من أمر توما فإنه بقي منطرحاً على الأرض إذ لم يسمع أحد صراخه. ولكن الرجل الغريب الذي كان قادماً نحو «الغيط» سمع أنيناً آتياً عن بعد. فتلمس طريقه واتجه إلى جهة الصوت إلى أن عثر بتوما فذعر بغتة ثم أخرج من جيبه ثقاب نפט وأشعله ليتبين الجثة

«يا للمصيبة! هذا توما!»

هذا ما قاله القادم الغريب عندما أشعل ثقاب النفط ليتبين الجثة فرأى صديقه توما البائس ساقطاً مغمى عليه. وكان اسم القادم غالي جرجس وهو رجل قبطي يسكن بالقرب من موضع الحادثة عند طرف سكة «الغيط» وكان صديقاً حميماً لتوما ولذلك راعه منظره وهو ملقى على الطريق كنصف ميت وعلم أنه لا بدّ في ذلك من جناية عظيمة. فخطر بباله أن ينقل توما

إلى بيته فقفل راجعاً وأيقظ خادمه وقال: — «اتبعني حالاً ولا تحدث صوتاً فإنّ بليّة قد حلّت بتوما أفندي وأنا أريد أن آتي به إلى هنا. هات معك مصباحاً»

ولم ينتظر غالي ريثما يضيء المصباح بل أسرع إلى حيث كانت الجثة وأخذ يستعد لنقلها. وكان القمر قد برز من وراء الغيوم القطنية وألقى أشعته البيضاء على جسد توما. وإذ انحى غالي فوقه أبصر أنّ في يده اليسرى قطعة من كم جبة يظهر أنّ توما أمسك بها في جهاده حتى انقطعت وظلت في يده. وكان بقرب اليد اليمنى قطعة من سلسلة ساعة فضية. فلما أبصر غالي هذين الشيئين أخذهما ووضعهما في جيبه باعتناء ولم يكد ينتهي من ذلك حتى قدم الخادم وبيده المصباح فطفق الاثنان يعالجان توما بلطف لينقلاه إلى البيت. فلما وصلا وضعاه على سريره وخلعا عنه طوقه (ياقته) وقميصه وأخذا يرشان ماءً بارداً على صدره ووجهه ويفركان يديه لتعود إليه الحياة. ولكن أتعبهما ذهبت عبثاً. أخيراً أرسل غالي خادمه ليستدعي الدكتور... أو طبيباً آخر قريباً وأمر أن ينطلق بعد استدعاء الطبيب إلى إدارة الشحنة — (التمن) — ويعلن الأمر

فذهب الخادم يعدو كالريح وبقي غالي وحده بجانب توما إذ لم يكن أحد في البيت ولم يكن قد مرّ على وقع الحادثة أكثر من نحو ربع ساعة ومرت بضع دقائق أخرى وغالي ينتظر. وإذ لم يرى أثراً لقدام صار يتأسف لأنه لم ينقل المصاب رأساً إلى القصر العيني أو إدارة الشحنة. ولكن الصداقة هي التي حملته على فعل ما فعل ولذلك عزم أن يلازم سرير صديقه إلى أن يأتي الطبيب وبعد نحو ساعة سمع غالي أنه ضعيفاً خرجت من بين شفتي المصاب. فأصغى بانتباه فرأى أجنانه ترتعش ثم رآه قد فتح عينيه وعاد إلى رشده وإذ رأى نفسه بين يدي صديقه غالي قال بصوت منخفض: —

«أين أنا؟»

فقال له غالي: — «أنت في بيت صديقك يا عزيزي فلا تخش بأساً»

— «وكيف وصلت إلى هنا؟»

— «لا تجهد نفسك الآن بالكلام... غداً...»

«آه... اذكر الآن... كنت مجتازاً في (الغيط) فهاجمني

ثلاثة لم أعرفهم وتهددوني بالقتل لأني مسيحي وطلبوا مني أن أهجر ديني وإذ أُبيت انهالت الضربات علي... ولا أعلم ماذا جرى بعدئذٍ»

فتذكر غالي ما عثر عليه في (الغيظ) بين يدي توما فأخرج قطعة الكم وسلسلة الساعة وأراها لتوما قائلاً: — «انظر ما وجدت في يدك عندما رفعتك لأتي بك وأنا متأكد أنهما ليستا لك»

فنظر توما إليهما وللحال تحققت له شكوكه التي كانت تخالجه فتأكد أن قطعة الكم كانت من جبة رضوان وقطعة السلسلة كانت لساعة عبد الله التي كان يعرفها تماماً. فأخذت عواطفه تتور ونفسه تهيج في داخلة فطلب منه غالي أن يهدأ لئلا يلحق بنفسه ضرراً فقال له توما: — «اعطني هذين الشينين وعدني أنك لا تخبر بهما أحداً»

فتوقف غالي ولكنه رأي أن الرفض قد يؤثر في توما جداً فطلب إليه أن يهدئ روعه. فقال: — «إنني لا أقدر أن أهدأ ولعلك تعجل بمييتي إن كنت ترفض طلبتي — آه من هذا الألم — ألا تتق بي؟ إن لي في ذلك مأرباً»



فلم يسعُ غالي إلا أن يجيبه إلى التماسه فوضع القطعتين تحت مخدته ووعده بالسكوت.  
وللحال سكن جاش توما فأغمض عينيه وأغرق في سبات

وعند ذلك قرع الباب فدخل الطبيب وكان سبب إبطائه إن الخادم لم يجد الدكتور... فأخذ  
يفتش عن طبيب آخر حتى اهتدى إلى هذا وأرسله بينما هو ذهب ليبلغ الحادثة لرجال الشحنة

فأخذ الطبيب يفحص توما ولما انتهى لاحت على وجهه علامات تدل على أن المصاب في  
حالة خطيرة لأنه كان مصاباً بنزيف في دماغه ناتج عن ضربة شديدة على رأسه فأخبر غالي سراً  
بواقعة الحال وأوصاه بعد إقلاق راحته بأي وجه من الوجوه. فأدرك توما للحال حرج موقفه  
وخطارة إصابته ولاح له في ضميره أنه لن يعود إلى الحياة فلم يبقَ له فيها إلا مقصد واحد وهو  
أن يشاهد رضوان وعبد الله قبل مبارحته العالم

وكان الطبيب قد خرج ووقف عند الباب يعطي الأوامر اللازمة لغالي وواعد بأن يعود  
المصاب في اليوم التالي وإذا بتوما ينادي من الداخل فدخلا فقال توما مخاطباً

الطبيب: «إنني أريد أن أرى بعض أصحابي يا حضرة الطبيب لأودعهم»  
— «لتودعهم؟ هذا هذيان لأنك متقدم في الصحة إن شاء الله ولكن لا يحسن أن ترى  
أحداً»

فعند ذلك تهيجت أعصاب توما حتى خشي عليه الطبيب ورأى أنه إن أبي عليه إجابة  
طلبه أفضى الأمر إلى عاقبة سيئة. فقال له: «اطمئن فسأوصي غالي أفندي بأن يرسل ويستدعي  
إليك أصحابك. فارتاحت نفس توما إلى ذلك ولاحت على شفتيه الصفراوين ابتسامة الاطمئنان. ثم  
عاد الطبيب فخرج ورافقه غالي إلى الباب فقال له الطبيب: «إنه من العبث رفض طلبته وهو في  
هذه الحالة فالأحسن إجابته إليها» قال ذلك وانصرف. فعاد غالي إلى توما وقال له:  
«من هم الذين تود أن تشاهدهم يا عزيزي اخبرني بهم ونم قليلاً واسترح»

«أريد أن أشاهد بعض أعضاء الجمعية... اذهب إلى بيت الهندي وقل له أن يدعو  
الأعضاء وبالأخص عبد الفتاح

وحنا ورضوان وحسيناً وعبد الله. فإنني أحب أن أشاهدهم. قل هكذا للهندي»

فوعده غالي بذلك. ثم حدث سكون عميق. وبعد قليل سُمع وقع أقدام عند الباب ثم ظهر الخادم مصحوباً برجال الشحنة. فقال الضابط: «يجب أن أكتب «محضراً» بهذه الحادثة وأرفعه للنيابة فهل تسمح لي بمشاهدة المصاب؟»

— «كلا لأنه نائم الآن وقد نهى الطبيب عن إزعاجه ولكن إذا شئت فأنا أجيبك على أسئلتك بقدر إمكاني لأنني أنا الذي وجدته وقد أخبرني بالحادثة»

ثم سرد له وقائع الحادثة بتفاصيلها ورأي الطبيب فيها فكتب الضابط «محضراً» بذلك وبعد أن ذهب وفحص محل الحادثة انصرف ولم ينم توماً في تلك الليلة إلا قليلاً من جراء آلامه ولكنه كان ساكناً صامتاً يحتمل أوجاعه بكل صبر. وكانت شفته تتحركان بإصعاد صلوات سرية وهو يتكلم عن الجمعية بألفاظ متقطعة ويصلي للمسيح لأجل بعض أعضائها بأسمائهم

وكان خادم غالي يعرف بيت الهندي فأنطلق إليه

وأطلعته على الأمر. فتلقى الهندي الخبر بدهشة وذهول لأنه كان قد شاهد صديقه منذ زمن قصير في صحة قوية وعافية جيدة فأسرع يدعو إلى بيت يوحنا ثم إلى بيت عبد الفتاح ثم ذهب هو وحسين إلى غرفة عبد الله فوجداه هو ورضوان معاً فقالا لهما:

«أتعلمان ما حدث؟ إن بعضاً قد هاجموا توما وأوسعوه ضرباً وحالته تتذر بالخطر». فانقلبت سحنتهما إلى لون أبيض وسألاً متجاهلين «ومن هاجمه؟» فقال الهندي «بحسب ما هو مدون في المحضر لا يعلم الجانون وليس هنالك بينة البتة وكل ما قاله توما لغالي عند عودته إلى رثده إنه لم يعرف مهاجميه ولا عرف صوت الذي خاطبه. هلم بنا لنراه.» فقال الشيخان «وإلى أين؟» فأجابا: «لمشاهدة توما فقد طلب أن يرى أعضاء الجمعية وأنتما من جملتهم»

عبد الله: «لا أقدر أن أذهب»

رضوان: «ولا أنا أقدر لأنني مشغول»

فدهش الهندي وقال: — «وأي شغل أفرض من هذا؟»

ألا تعلمان إنكما ربما لا تريانه بعد الآن فهلّم بنا ولا تضيعا الوقت سدى»

فنظر عبد الله إلى رضوان وأدرك كلاهما أن رفضهما شرّاً من ذهابهما. وأنه لا خوف عليهما لأنهما كانا قد أفلحا في تنكرهما فهما إذاً سالمان من كل خطر. فعزما على إتباع الهندي بقلبين مطمئنين ولكنهما بدأا أن يشعرا بوخز الضمير. ووصل الجميع بيت غالي أفندي قبيل الساعة الثامنة

ولمّا وصل الجميع إلى «المنظره» وجدوا أن حنا وعبد الفتاح كانا قد وصلا قبلهما فحيا بعضهم بعضاً وعلى وجوههم علامات تتقلب بين الاهتمام والهلع. ولم يكن انفعال حسين وعبد الفتاح أقلّ من انفعال حنا والهندي. وبعد قليل دخل الخادم بالقهوة ثم نزل غالي وحيا الجميع وقال لهم إن توما مشتاق جداً أن يشاهدكم ولكنه إذ لا يقدر أن يرى الجميع دفعةً واحدةً فهو يحب أن يشاهد رضوان وعبد الله أولاً

فنظر هذان إلى بعضهما ولسان حالهما يقول إنّ وخز الضمير يجعل الإنسان جباناً. ولو أمكنهما لامتنعا عن تلك المقابلة ولكنهما أخذا يعلنان نفسيهما بأنهما قد أفلحا في تنكرهما فلا

---

خوف عليهما ولا هما يحزنان. فصعدا إلى الغرفة التي كان فيها توما وهما يقدمان رجلاً  
ويؤخران أخرى

حقاً إنه لا مشهد يؤثر في النفس كالمشهد الذي ترسمه الآلام والأوجاع على وجه صديق  
أو عزيز راحل حتى لقد ينكره عارفوه ولا يصدقون أن ذلك الوجه وجهه وتينك العينين عيناه بعد  
أن كان يتمتع بجمال الصبا وطور الشباب



## الفصل التاسع

### أدين حتى الموت

ولما دخل الاثنان رأيا توما أشبه بجثة لا حراك بها إذ كانت عيناه مغمضتين ويدها ممدودتين إلى جانبه كيدي ميت ولم يكن من أثر للتنفس فيه. فوقفا صامنتين هنيهة يراجعان ما جنته أيديهما ولم يعودا يبرران نفسيهما بما كانا يتشبثان به قبلاً من تحليل الإساءة إلى من قد ارتدّ عن الدين الإسلامي بل صارا يشعران بأن توما أحسن منهما مسلماً كان أم غير مسلم وأنه أقرب إلى الله وأرفع قيمةً منهما في عيني الإنسان

ومرت هنيهة صغيرة وهما واقفان إلى سرير المصاب وقد أخذ الانفعال منهما كل مأخذ. وبعد قليل فتح توما عينيه وقال «هل الباب مقفل؟» فذهب عبد الله وأوصده ورجع. فدعاهما توما قائلاً: — «اقتربا مني لأنني لا أقدر أن أرفع صوتي — فاقتربا إلى سريره كل من جهة وانحنيا قليلاً لئسمعا صوته الضعيف. فأخذ توما يكلمهما بكل لطف ومحبة وقال لهما: — آه

يا عبد الله ورضوان: — كيف عاملتُماني بمثل هذه المعاملة؟...»

فبغت الاثنان ولجما عن النطق إذ لم يكونا ينتظران أن يسمعا ذلك الكلام. ترى ماذا يجيبانه بغير الإنكار؟ ولكن الإنكار لم يكن مقنعاً حتى أنهما لم يحسنا النطق. فحارا في هل يظهران الاستياء أم الغضب أم الهدوء أو العجب أم.. أم.. وطبعاً تشبثا بأذيال النكران وأخذ رضوان يحاول أن يبرهن لتوما وهمه وبطلان تهمة. ولكن توما رفع يده الضعيفة وقال: — «ليس لي قوة على الإصغاء لأن دقائق معدودة وأنفاسي محدودة فانظر يا عبد الله إلى سلسلة ساعتك»

فنظر إليها عبد الله ولم يكن حتى تلك الساعة قد شعر بفقدان قطعة منها ثم قال توما لرضوان «وأنت انظر إلى كم جبتك» فنظر وإذا بقطعة من الكم قد فقدت. فقال توما لهما رافعاً قطعة السلسلة وقطعة الكم: — «انظرا!»

وعند ذلك انتفض عبد الله ورضوان كأن مجرى كهربائياً جرى في مفاصلهما وضربهما بالشلل. فلم يبق بعد موضع للنكران فسقطا أمامه قائلين: — «العفو!»  
فقال توما: — «اصغيا إليَّ بانتباه لأن أنفاسي محدودة. إن



غالي يعلم بهاتين القطعتين ولكنه لا يعرف لمن هما ورجال الشحنة أيضاً لا تعلم بهما. إنكما تعلمان ما يترتب عليكما من القصاص إذ لا تقدران أن تنكرا إساءتكم إليّ تعمداً سيما وإنكما كثيراً ما تهددتماني علناً»

— «العفو والسماح فإننا لم نعلم ما عملناه!»

— «يا لك من فال حسن! إنهما يقولان ما قاله المسيح عن مضطهديه — ثم التفت إليهما وقال: «حاشا لي أن أطلب موتكما يا عزيزي بل حياتكما — أريد أن أريحكما لا أن أهلككما إنني مائت لا محالة ولكنني اغتفر لكما جريمتكما حباً بالمسيح الذي مات من أجلي وأحبكما. آه كم أشتهي أن أراكما من أتباعه لكي يعمل الموت فيّ والحياة فيكما»

فتذلل الشابان وأخذ الانفعال منهما مأخذاً عظيماً فصارا يتأوهان متوجعين وقال رضوان: — «الحق معك يا أخي فإن الدين الذي يفعل في النفس هذا الفعل لا بد أن يكون الدين الحقيقي»

— «ألا تتبطني إذا؟ آمن فتخلص»

— «إنني لا أعلم شيئاً من ديانتكم ولكنك قد أقنعتني الآن أن المسيح مات»

— «تمسك بذلك وحينئذ لا بدّ أن تتبعه بقية الأمور إن المسيح لم يمتُ عني فقط بل عنك وعن عبد الله أيضاً. أفلا تتبعانه»

فأجاب رضوان: «بل إنني سأتبعه»

وبقي عبد الله صامتاً

فقال له توما: «أولا تتبعه أنت أيضاً يا عبد الله؟»

فلم ينطق عبد الله بسوى أنة ضعيفة. وعندئذ فرع الباب فأخفى توما قطعتي الكم والسلسلة في يده. ثم دخل غالي وقال لتوما: «إن ضابطاً قد حضر من النيابة وهو يلح أن يراك ولو دقيقة» قال ذلك وخرج

فأسرع توما وأعطى قطعتي الكم والسلسلة لصاحبيهما وقال لهما «خذا!» وما كادا يأخذانهما حتى دخل الضابط وقال لتوما

«أريد أن أسألك سؤالاً واحداً قد أخذت شهادة غالي أفندي بناءً على ما عرفه منك أصغ فأتلوها عليك»

ثم قرأها. ولما أتى على آخرها قال له: «هل عندك ما تزيد على هذا»

«كلا»

فكتب الضابط جوابه وانصرف. فقال توما متأوهاً: —

«الآن تطلق عبدك بسلام» ثم أغمض عينيه واعتزته نوبة ألم فانقلبت سحنته وتغيّر لون وجهه. فوثب رضوان على رجليه ونادى غالياً وقال: — «غالي! غالي! تعال إلى هنا!»

فأسرع غالي رأى توما ضائعاً عن رشده والألم قد عاد إليه فأرسل واستدعى الحكيم ثم انسل عبد الله ورضوان ليدعوا البقية وكانت الدموع تتدي وجهيهما. فدخل الآخرون لمشاهدة توما ووقفوا حول سريره يودعون قبل مبارحته هذا العالم

قال الهندي: «ليس في طاقتنا أن نقاومَ هذا الأمر. إن هذه الحياة لم تنقض عبثاً فأنا منذ هذه الساعة أصرّح بإيماني بيسوع المسيح علانيةً»

وقال حسين: «إنني قد تمعنت في هذا الأمر كثيراً. ماذا ينفعني العالم كله إن ربحتة وخسرت نفسي؟ هوذا أنا للمسيح!»

وقال عبد الفتاح: «إن المسيح قبل بطرس وهو قد أنكره ثلاثاً أفلا يقبلني أنا أيضاً؟»

وتبع ذلك سكوت عميق!

فنهض حنا ورفع إلى الله صلاة حارة مستودعاً تلك الروح الراحلة والنفوس الجديدة بين يديه تعالى وقال إنه «إن لم تقع

حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها ولكنها إن ماتت تأتي بثمر كثير فالمجد لك يا من  
برهنت لنا هذا الناموس بالقول والعمل وألهمت عبدك هذا أن يحيا ويموت بمقتضى ذلك الناموس.  
لك المجد إلى أبد الأبدين أمين»



وعلم الجميع فيما بعد أن توما أسلم أنفاسه الأخيرة أثناء هذه الصلاة. فلما وصل الطبيب  
كان الأمر قد انتهى



في ذات يوم تعمّد الهندي وحسين ورضوان وعاد عبد الفتاح إلى أحضان الكنيسة التي  
كان قد هجرها. أما عبد الله فترك مصر ولم يُعلم له مقر. واتفق الجميع على إقامة حجر ضريح  
بهيئة صليب للمتوفى في نقش عليه هذه العبارة وهي: — «الموت يعمل فينا ولكن الحياة تعمل  
فيكم»

